ماجد سليمان

رأسٌ بينَ مطرقتين

مسرحية

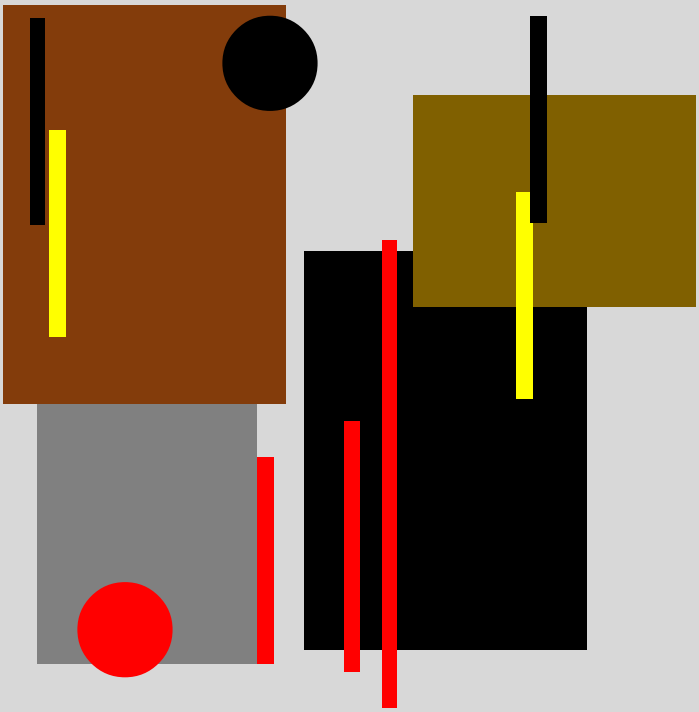

2022

ماجد سليمان

رأسٌ بينَ مطرقتين

الإنتاج الإبداعي للكاتب:

- **عينٌ حمئة** (رواية) طوى للثقافة والنشر والإعلام، لندن ٢٠١١م
- **دمٌ يترقرق بين العمائم واللحى** (رواية) مؤسسة الانتشار العربي، بيروت ٢٠١٣م
- **طيور العتمة** (رواية) دار الساقي، بيروت ٢٠١٤م
- **نجمٌ نابضٌ في التراب** (قصص) أدبي الجوف ٢٠١٣م
- **قبّعةٌ تطير في الرّيح** (قصائد ونثائر) أدبي المدينة المنورة ٢٠١٤م
- **وليمةٌ لذئاب شَرِهة** (مسرحيّة) أدبي تبوك ٢٠١٦م
- **كبسولة حياة** (فيلم قصير) ٢٠١٧م
- **شرق الأرض، غرب البحر** (مسرحيّة) أدبي الجوف ٢٠١٨م
- **ما روته كاميليا** (حكايات) أدبي الرياض ٢٠١٩م
- **ليلُ القبيلة الظّاعنة** (ملحمة) أدبي الحدود الشمالية ٢٠١٩م
- **نسوة السوق العتيق** (سيرة روائية) نشر ذاتي ٢٠٢٠م
- **٢٣ أبريل** (مقالات) نشر ذاتي ٢٠١٥م
- **ملاذ أخضر** (شعر محكي) نشر ذاتي ٢٠٠٨م
- **أجراس** (قصيدة للطفل) نشر ذاتي ٢٠١٤م
- **الصندوق** (قصة للطفل) نشر ذاتي ٢٠١٤م
- **الآباء** (مسرحية للطفل) نشر ذاتي ٢٠١٤م
- **صهيل القوافي** (مختارات) نشر ذاتي ٢٠٠٣م
- **نزف الشعراء** (شوارد) نشر ذاتي ٢٠٠٤م
- **شعراء من عائلتي** (مطويّة) نشر ذاتي ٢٠٠٧م

ماجد سليمان

رأسٌ بينَ مطرقتين

مسرحية

رأسٌ بينَ مطرقتين

ماجد سليمان (السعودية)

Majed suleiman

تصنيف الكتاب: مسرحية / مونودراما

عدد الصفحات: ٧٨

تصميم الغلاف والإشراف الفني: ماجد سليمان

الناشر: نشر ذاتي

تاريخ الإصدار: ٢٠٢٢م

لغة الكتاب: العربية

جميع الحقوق محفوظة

رقم الإيداع: ١٠٧٧٣ / ١٤٤٣

ردمك: ١ – ١٦٠٣ – ٤٤ – ٦٠٣ – ٩٧٨

majedsuleimann@gmail.com

هذه المسرحية بأشخاصها وأحداثها من نسج الخيال.

الشخصيات:

* **مَحْسُون**: مُتحدِّثٌ لَبِق يعمل ساقياً في الحانة.
* **صَاحِبُ مَحْسُون**: رفيق رحلته، يجلس جوارهُ في القطار.
* **آسِيَة ياسين**: صاحبة الحانة.
* **سُهير**: امرأة غُلاميَّة، رافقت محسُون في القطار.
* **جاد الله**: سبعيني هارب من العمل السياسي.
* **الرجل الموسمي**: تاجر خمور وسياسي غامض مُغرم بآسِيَة.
* **ياسين**: رجل السياسة ووالد آسِيَة.
* **حمدون**: زوج آسِيَة الأوَّل، صحفي مشرف ومحرر أهم صفحة سياسية
* **الأشرم**: زوج آسِيَة الثاني، يعمل في تهريب الممنوعات.
* **سَنيَّة**: والدة آسِيَة.
* **عبد الشكور**: دبلوماسي، وَجَدُّ آسِيَة لأُمِّها.
* **زليخا**: ساقية في الحانة وزميلة محسون.
* **نورا**: الأربعينية اللَّعوب، صديقة جاد الله.
* **الشاب الأسمر**: صاحب علاقة مبهمة مع نورا الأربعينية.
* **شخصيات ثانوية**: ثلاث نساء صديقات لسُهير يرافقنها طيلة الرحلة ـ المحامي ـ سائق القطار ومُساعده ـ الرجال الأربعة ـ سُكارى مُتفرقون ـ رُكَّاب ـ آخرون.

قطار، طريق بريَّة ـ ليل

(مَحْسُون يُوجه حديثه إلى صاحبه الذي يُدوِّن دُونَ مُقاطعة)

مَحْسُون: تَلَقَّيتُ أول ضربة في حانة السّيدة آسِيَة ياسين، حين هَوَت امرأة بحقيبتها الجلدية الصفراء على وجهي، بعد أن أوصلتها أول مرة إلى السلم الكهربائي، ووقعت يدي على ردفها دون قصد..

(يلمس وجهه)

: تَذَكَّرتُ تلك الضربة التي أكملت عامها اليوم، وككل يوم نَهَضتُ مُنتصف الظهيرة من فراشي الشبيه بمهجع السجين، وبالكاد استحممت، ثم أعددت طعامي: كوب من الشاي، وشريحة سميكة من الخبز المحمَّص مع قطعة من الجبن مدهونة بالعسل، وبيضة مسلوقة، ونصف تفاحة..

(يستغرقُ في التفكير)

: فتحت النافذة الشرقيّة للغرفة، فتدفّق النهار إلى الداخل، لحقه هواء مثير، وخلفه نداء الباعة وأصوات الزبائن، صوت شاحنة ثقيلة، تتبعها حركة لعربات صغيرة مسرعة عابرة الطريق الفرعي، فتمدّد الصمت وتردّدت بعدها طقطقة حجر على شجرة من صبيّ عابث، انتبهت أنه ينقصني الكثير من الأغراض الطارئة: سكر . حليب مجفف . شاي . خبز أسمر . محارم . بُن .مكسرات . سائل تنظيف . والأمر لا يحتمل الانتظار فقررت إحضارها من ليلتي أو يوم غدٍ..

(يسير ببصره تجاه اللوحة المعلقة قرب نافذة القطار)

: ثم أخذت قياس ضغط دمي، وإبرة الأنسولين، وغادرت الغرفة في الساعة نفسها مثل كل يوم، أُنْصِتُ إلى وقع قدماي تهبطان السلم إلى الطابق الأرضي، خرجت من بوابة البناية تجاه محطة القطار لينطلق بي مثل كل مرَّة، في الساعة الثالثة والنصف عصراً إلى عملي في حانة السيدة آسِيَة، وأعودُ من ليلتي كالعادة..

(يهزُّ رأسه)

: بعد البناية التي أسكنها بأمتار قليلة، عند جسرٍ رُصف بجذوع نخلٍ مُشذّبة، أُرسِيت بجانبه بناية صغيرة ذات أبوابٍ ثلاثة، كادت دراجة هوائية أن تصطدم بي لولا أن تفاداني سائقها، وتجاوزني مُرسلاً إليَّ إشارة فاحشة بيده، لقد بدت الشوارع خالية، فطنتُ لرؤوس تُطل من

نوافذ البنايات بطوابقها الستة، وأسفل منها أصوات شُبَّانٍ مُتعبين يتبادلون الشتائم السياسية، بألسنةٍ مُتعثرة بالسُّكْرِ وثقيل النعاس..

(يقدم صاحبه له الماء . يشرب)

: استحال السكان كَكُتَلٍ داكنة في النهار، حيث أصادف كل يومٍ في طريقي إلى محطة القطار باعة مُتَعَجِّلين، يعرضون بضاعتهم على الرصيف لسيّاح من بلاد بعيدة، من دونهم عجوزٌ تحمل لافتة عريضة سُطِرَت عليها عبارة سياسية بذيئة، وغير بعيد منها عائلة من ستة أفراد، تقف قريباً وكأنها احتارت أين تذهب في هذا الوقت، وعن يسارهم مَعتوهٌ مُتسخ الجلد واللباس يُلاحق المارة، ويرميهم بالشتائم والقاذورات..

(ينظر في النافذة)

: تجاوزت كل هؤلاء ثم أدخلت يدي البرصاء في جيب بنطالي وسحبت علبة سجائري، وأخرجت واحدة دون أن أُشعلها، فقرأت من شاشة هاتفي بصوت يشبه الهمس:"أكدت اليوم منظمة الصحة العالمية ظهور أولى حالات الإصابة بفيروس كورونا المستجد ـ ١٩ في إقليم شرق المتوسط". (**يسعل**) أعدت هاتفي إلى جيبي مُحدِّثاً نفسي: إلى أين يتجه هذا المرض؟..

(يتفحص ببصره كفيه)

: بَدَّد حديث نفسي ثلاثة أطفال خرجوا من متجر للمواد الغذائية، وهم يُراهنون بعضهم بأصوات مُتشنجة:

ـ نحن لا ننتمي إلى التنظيم.

ـ أبي قال إننا ننتمي إلى التنظيم.

ـ أيُّ تنظيم تقصدان؟

(يتأمل عجوزاً تتأبط ذراع زوجها وتضحك بصعوبة)

: في الرابعة والنصف عصراً، دخلتُ حانة السَّيدة آسِيَة، التي أُنْشِئت أسفل بناية من طابقين تتكون من خمس شقق، يخترقها سلم كهربائي بطيء، لا يتسع لأكثر من ثلاثة أشخاص، يُطلقُ في صعوده أو نزوله صوتاً يشبه صوت مكائن الزراعة..

(ينتبه لفتى وفتاة يشربان ويتبادلان القُبل)

: تقع الحانة نهاية الشارع العام، بين السوق الشعبي ومحطة القطار، زَيَّنت السيدة آسِيَة مدخل حانتها بشمعدانين طويلين على هيئة ساقِيَتين فاتِنَتين، نُصبَا عن يمين وشمال الداخل إليها، وعلى كامل الجدار المقابل لوجه الداخل، لوحة مُتخيلة لأبي نواس ورهطٍ من جلسائه وهم يَسْكَرُون ويتضاحكون، وعلى باب الخارجي للحانة حُفِرَ شكلان هندسيان قديمان مُتشابهان ومُصفَّحان بمسامير بارزة الرؤوس كثيرة، عُلِّقَت عليهما حديدتان نصف دائرتين خُصِّصتا للقرع، كما سُدَّت النافذة الشرقية للحانة بصفيحة حديدية ثخينة عريضة

برؤوس مُدبَّبة، لدواعٍ أمنية لا يعرفها إلا السيدة والقريبون منها، أما المنعطف المؤدِّي إلى السوق الشعبي المجاور للحانة، فدونه روائح شديدة العفونة، من اختمار نفايات متراكمة على جانب الطريق كله، وبين كل متجرين يجلس مُشَرَّد أو ضائع لفظته ظروف الحياة..

(يصمت . يُكمل بصوت متباطئ)

: لم أكن مُستعداً تلك الليلة أبداً لسماع هرطقات السُّكَارى التي تدُقُّ دماغي، كما تفعل زميلتي زليخا، السّاقية الواقفة قرب طاولة الزبون المقابل، والتي جُرِحَت سبّاتها مِراراً، جَرَّاء سوء فتحها لزجاجات الخمر ذوات الأغطية الفضية، زليخا ذات الصوت الهادئ الطفولي، والوجه المستدير الوردي الباسم، والعينين العسليتين الواسعتين، والفم الأحمر الصغير، والقوام المتعدل الفاتن، والنهدين الصغيرين المُطِلَّينِ من خلف بلوزتها الحريرية، والشعر الأشقر العطري المرسل إلى حدود تنورتها، حيث ردفها البارز النَّدي، غالباً ما تنوب عن السيدة آسِيَة بالوقوف أمام آلة النقود، تثرثر وتومئ بيدها للزبائن، رأيتها وقد وضعت وردة بيضاء في شعرها تقليداً لما تفعله السيدة آسِيَة، فهي تُعطي المثابرين من السُّقاة كأسين مكافأة لهم..

(يخفض بصره)

: جاءت نورا الأربعينية مثل كل ليلة، فنهبني جسمها الغائص في ثوبٍ أبيضَ لاصقٍ ضيّقٍ من عند صدرها إلى ركبتيها، أطرافه واسعة من

الأسفل، وأكمامهُ لا تغطّي ذراعيها، مُزيّنة حدوده بلون أسود، معصوبة الضفيرة، مُمرّرة المِرْوَد على أجفانها، وفلقة مفتوحة من خلف رقبتها الطويلة حتى نصف ظهرها، لقد منحني عطرها شعوراً مُنعشاً، اختارت طاولة قريبة من النافذة، وَدَوَّنتُ ما اختارته من طعام وخمر، بعد أن استعانت بالقائمة، وشغلت أصابعها تلمس الأزرار السوداء الصغار، فَطِنتُ لحلمتيها النافرتين المُتورّدتين من خلف القماش، فزفرتُ بعمق، ومضيت غير مطمئن..

(يقف . يساوي بنطاله . يجلس)

: ثمة طاولة يجلس إليها رجال بملابس غير أنيقة يتلاسنون ويتناولون طعاماً لم يكن من صُنع مطبخ الحانة، ويلومون الحكومات بحرارة، ويجلسن إلى الطاولة القريبة منهم نساء بملابس صيفية تفضح أنوثتهن الهائلة، يشربن ويتحدثن بشيء من القلق، سمعت إحداهن:"بلادنا أرهقها الفساد الحكومي"، وصوت الأخرى:"المال العام"..

(يمطُّ شفتيه)

: تتكلم السيدة آسِيَة كثيراً عن رجل موسمي لا نعرف عنه إلا أنه تاجر خمور وقديم عهد بالعمل السياسي، عظام وجهه الطويل جليلة، عيناه صغيرتان سوداوان تحت حاجبين كثيفين، وتحت عينه اليسرى ندبة بارزة، وشاربه قصير مستطيل مُبلَّل بصبغة بُنية، له بطن زائدة قليلاً، صوته هادئ لكنه سريع الكلام، رأيته قبل ليال يُخرج من جيبه

العلوي ورقة مربعة صفراء ووضعها على آلة النقود، ووجهه يُخفي الضحك، نظرت إلى الورقة وإذا عليها سطر ونصف..

(يَحكُّ الأرض بقدمه اليمنى)

: ابتسمت له سيدتي وهي تحكُّ عجيزتها الضامرة تحت تنورتها الزرقاء، ثم أعادت جزءاً من وركها الأيسر إلى مكانه بعد أن تجاوز حدود حزامها المطاطي المُرصّع بدوائر فضية، ثم اختَلَت به على طاولة في الركن الضيق من الحانة بعد أن وضعت أمامه الزجاجة وقالت له:"اشربها على حسابي. قال لها:"بل تشربينها على حسابي"..

(يضرب ظهر كفه ويحكُّها)

: سَكَبْتُ له ولها في كأسين مُزخرفين، سقطت قطرات ذهبية على الأرض، ثم التفتَ إِليَّ كمن يطردني بصمت، كانت آخر ليلة عملٍ لي هُناك، فقد قَبِلَت السيدة آسِيَة بمنحي يومين إجازة لظروفي، كان أمامي ما يكفي من الوقت لأستقل قطار العاشرة والنصف ليلاً، الذي يأتي مُتأخراً لدقائق غالباً، أعود إلى غرفتي دون أن أشرب الكأس المجَّاني الذي تُكافؤني به سيدتي كل ليلة في نهاية العمل، وأنام إلى عصر اليوم التالي..

(ينظر إلى فتاة سمراء تعزف على الأوتار بخفة)

: كان اقترب منتصف الليل قريباً، وقد تمدَّد الظلام على ضجيج المدينة، وجفَّ ريق طنين الشوارع، وسقط الناس تحت أغطية النعاس، كانت ثمَّة جِرَاء تعوي وقطط تموء في الجهة المقابلة، حين خروجي صادفت زبونة خارجة من الحانة، جمال منتصف العمر، عارية الكتفين، ترتدي طوقاً من الذهب، وتنورة رمادية داكنة، وبلوزة بيضاء مائلة للأصفر، وكعباً عالياً، مماثلةً لتلك الملابس التي ترتديها النسوة عادة حين يذهبن إلى المقاهي واللقاءات السريعة، وقفت أمام زجاج الحانة وأخرجت من حقيبتها اليدوية الصغيرة علبة تجميل وأحمر شفاه صغير، وشرعت في وضع زينتها الخفيفة، ثم رمت سيجارتها وسحقتها بكعبها الأيسر..

(يضحك ببطء)

: لم أشعر بالبرد الذي يجلد رقبتي بينما أنظر في الحانة، سِرتُ صامتاً، اختطفني ارتعاد مفاجئ، سقطتُّ، فعضدني شاب بعد أن مَدَّ إِليَّ يده النحيلة، حتى وقفت، كان قد تَرَجَّلَ عن دراجته حين رآني، تَحَسَّست مكان السقوط فكان كدمةً مؤلمة لكنها غير خطيرة، فاستأنف سيره بدراجته بعد أن ملأ رئتيه بالهواء وأومأ لي بحركة لا إرادية، لم يكن قطار العاشرة والنصف القادم من الشرق قد وصل، والناس الواقفون قِلّة هذا الليل، قُربي أربع نساء يتهامسن وَيُدَخِّنَّ ويتبادلن السجائر، وتسعة رجال في ثياب ملونة وكنزات شتاء،

يـجلسون فـوق حقـائبهم الـجلدية الكبيـرة، وآخـرون وضـعوا حقـائبهم أرضاً وَضلّوا واقفين، وعلى وجوههم يلوح التململ، تعبر أمامهم عربات نقـل عليهـا صـناديق كرتونيـة كثيـرة، ومـن دونـهم قطـط تتعـارك، وَجَـمْعٌ آخر من العائلات التي ارتسم التعب على ملامحها..

(ينظر إلى امرأة تُلاطف ابنتها)

: مكبرات الصوت توجه الـمسافرين إلى أين يذهبون، وماذا يفعلون، محطة واسعة فيها متجر لبيع الهدايا والزهور، وفي قلبها يرتفع مقهى صغير من ثلاثة أبواب، وقفتُ مُصغياً إلى ضجيج الوافدين والمغادرين وتحياتهم الـمُرحِّبة تتداخل مع تحياتهم الـمُوَدِّعة، ثـمّة رجل آسيوي أسمر طويل، يضع الممسحة في السطل الملآن بالماء والمنظفات الـمُركزة، ويمسح الأرض بطريقة فنية..

(يدقُّ بقدمه الأرض)

: رمت إحدى النسوة سجارتها في مواسير الصرف الصحي، واعتمرت قبعتها السوداء الـمزخرفة بالرمادي، واستدارت نحوي، واقتربت مني مُخرجةً من تحت شالها الأحمر تذكرة وَمَدَّتها إِلي:"هل سَقَطت منك؟". هززت رأسي بالنفي دون صوت، بدوتُ مُستغرباً منها، لقد رأيتها وصديقاتها منذ ساعات في حانة السيدة آسِيَة، نعم رأيتها تَسْكَرُ مع صديقاتها الواقفات هناك قرب عمود الإنارة الزرقاء، وكانت

تتوَسَّلُ إلي، ألا أُخبر سيدتي عن الزجاجة التي خبأتها في حقيبة إحداهن..

(يعصر كفّه)

: قد تطردني سيدتي من العمل لو علمت بتواطئي معهن، كان في صوتها نبرة غَنَجٍ وأسلوب مزاح، ولعل الموقف لم يَتَخَطَّى المزحة؟! ففي الأعوام الأخيرة التي قضيتها منغمساً في العمل، مقيداً بين طاولات الحانة، لم يدخل إلى سمعي خلال هذه الفترة الطويلة صوت في نغمته احتيال أو خداع، رأيت في السُّكارى صدقاً ما رأيته في السياسين وأصحاب السُّلطة والأموال..

(يفحص وجهه بأنامله)

: تَغَيَّرَ شكلي كثيراً، وجهي الذي لَوَّعته الحياة، ورسمت عليه آثارها، قد ظَهَرَ زَغَبٌ أَبيضَ حول أنفي الكبير، وتضاعفت تجاعيد جبهتي، ونقص وزني، ولاح صَلَعٌ كبير على مقدمة رأسي، وبانت هالات داكنة أسفل عينيّ الصغيرتين، وبان شيء من التَّرهل على بشرتي الحنطية، كل شيء تغير فِيّ عدا اسمي: محسُون، ولي من اسمي نصيب ليس بالقليل..

(ينهض ويتجه إلى باب الخلاء ويدخله . يعود)

: كانت المرأة في هيئة جيدة ومزاجٍ عالٍ، هيفاء، معتدلة الطول نحيلة، وجهها متجانس الملامح، لها طلّة تلفت النفس إليها، حنطية

عليها سحنة غُلاميَّة، وَقَفَت بعد خطوات مني، فئران تتطارد وراء بعضها، وغير بعيد منا قطط جائعة تتربَّص بها، لاذت بعض الفئران بالهرب، وبعضها لم ينجُ من مخالب القطط، رأيتها بالمقابل مني، عند عربة الفشار وأصابعها تلتقط الفشار لفمها الصغير، أخذ صدري يعلو ويهبط، وعلى وجهي لاحت قسمات الإعجاب، الحَرْق الصغير في ذراعها جَذَبَ سؤالي عنه، لأكون أكثر الفضوليين وقتها:"أبكِ مكروه آنستي؟". لم تُجب، فَتَحَت محفظتها الصغيرة الصفراء، وأخرجت دراهم معدودة، قيمة الفشار الذي وضعت كرتونه الصغير بين عضدها ونهدها، ثمّ قالت وهي تعيد محفظتها إلى حقيبتها الحمراء المكعبة:"سيدة ولستُ آنسة"..

(يُمَزِّقُ منديله القماشي)

: فأدركتها بنظرات مُتواصلة شَرِهَة، مَصحُوبة بنزوةٍ عَلَنِيّة، وفجورٍ فريد، لكنها ظَلَّت صامتة لوقت وكأنها تحاول الحديث لكن صوتها لا يستجيب، وبرزت في نَظَرَاتها إشارات قلق وتساؤل وعدم ارتياح، قلت لها أن التذكرة ليست لي، بعد أن مددت راحتي وعليها التذكرة، فتحاشت راحتي الممدودة في نظرة ساخرة، لم أُعرها اهتماماً ولا أقدر على أن أطلب منها أن تجيء وتشرب معي بعد أن نصل إلى المحطة الغربية قريباً من سكني، فقد لا أنجو من فخها المقبل كتغير سلوكها فجأة..

(يخفض بصره)

: ساوت كنزتها وأخفت عني وَهَجَ ساقيها ولملمت أطرافها، تَذَكرتُ الليال التي قضتها وصديقاتها في حانة السيدة آسِيَة، لم أقدر على أن أُحصي عدد الكؤوس التي شربنها ولم يدفعن ثمنها، اكتشفت أني كثيراً ما وَضَعتُ خِططاً دقيقة للإيقاع بهن بحضور سيدتي، ولم أنجح..

(يمد صاحبه له علبة التبغ . يأخذ سيجارة دون أن يشعلها)

: سُمع اقتراب القطار من المحطة، وراح الركاب يقتربون تباعاً، وفور توقفه التصقت الأجساد ببعضها، وَسَبَح الضَّجيج فوق الرؤوس، أجسادٌ مُتراصةٌ تفوح منها روائح التعب والصبر، صُراخ رُضَّعٍ في الخلف، وتلاسنٌ مُتقطِّعٌ بين الرجال، وهمسٌ طويل بين النساء، وبعد خمسَ عشرة دقيقة استقر الجميع، بما فيهم المرأة الغُلاميَّة التي رأيتها قبل قليل، الغُلاميَّة التي سألتني عن التذكرة الضائعة وعن موعد الرحلة، جَلَسَت إلى يميني قُرب النافذة، وقالت:"سُهير إن أحببت" . وتدلَّت الشاشة المستطيلة الناطقة من سقف القطار، بعد أن انقسمت إلى ثلاث صُوَرٍ حيَّة: خريطة . طريق . جانب المحطة الشرقية، فارتفع منها صوتٌ أُنثويٌّ نقيّ يرحب بالمسافرين، لتعبر بين مقاعد الركاب فتاة مرتدية تنورة خضراء قصيرة داكنة، وقميصاً أبيض مُطرّزاً بالأخضر الفاتح، وحذاءً بكعب أسود قصير، على وجهها مكياج خفيف،

وشعرها مربوط على هيئة ذيل الفرس، مستمرة في توجيه الركاب والترحيب بهم، حتى بدأت الرحلة بعد أكثر من عشرين دقيقة من موعد العاشرة والنصف، وتحركت عجلات القطار آخذة في التسارع، جذبتني ملامح سُهير الغلاميَّة جانبي، وزُرقة القمر القادمة من النافذة، تُغطيّ نصف وجهها..

(ينظر إلى ساعته)

: صرختُ:"ما هذه الرائحة التي تأتي من الخلف؟". فَوَضَعت سُهير إصبعها الإبهام على جرحٍ أسفل شحمة أذني، أحدثته قطع زجاجة تطايرت على إثر سقوط أحد السُّكَارى في الحانة من ليال، أشارت أنها أفواه صديقاتها الجالسات خلفنا، وأنهن أكثرن الشرب قبل ساعات، والبرد القارس يحفز الروائح على العبور إلى الأنوف، فجأة، تكلمن صديقاتها وأحدثن ضجيجاً وهنَّ يتدافعن، أصواتٌ لمتعاركات، وقرع سريع لكعوبهن، هُنَّ يتعاركن على زجاجة مسروقة كعادتهن كل ليلة..

(يفطن كمن فاته أمر . يستدرك)

: أسكن في بنايةٍ قُربَ مصنع للنسيج، غرفةٌ من بين غرف كثيرة لكنها صغيرة وغير منظمة، غرفة سيئة قبلت بها مكاناً للأكل والنوم واللعب الإلكتروني أيام عطلة الأسبوع، بقيت فيها أغراض من سكنها قبلي: خزانة ملابس حديدية من درفتين، وسرير خشبي، طُرح عليه فراش

أزرق فاتح من الخياطة الرديئة، ووسادة صفراء، وغطاء ثقيل بُني مُقلّمٌ بالأبيض، وثلاجة قصيرة، وملاءة بيضاء، إضافة إلى خزانة خشبية قصيرة من ثلاثة رفوف، تركتها عند بابي زليخا زميلتي في الحانة، ومرآة حائط مستطيلة ببرواز بلاستيكي أبيض، وجدتها مركونة عند باب غرفتي مع بداية الصيف، اكتشفت أن زليخا أمرت ابنها المراهق أن يركنها ويخبرني متى جئت في طريقه، أيضاً لوحة تشكيلية لجبال يشقها مجرى نهر هادئ، عَلقتها يمين الباب، ومِكْوَاة، وطاولة صغيرة بيضاء جوار سريري عليها نسخة من القرآن الكريم، وفي ركن الغرفة مساحة ضيقة لدورة مياه لا أتبوّل فيها إلا واقفاً، علقت في منتصفها جدارها رف بلاستيكي أزرق، صففت عليه معجون أسنان وفرشاة وثلاث شفرات حلاقة، وقطعتان مكعَّبتان من صابون اليد..

(يُصْلِحُ خيوط حذائه)

: أنهيت عشر سنوات في الدراسة، وانقطعت، لكني أقرأ وأكتب جيداً، وأستدينُ لأرد ديني كبقية العرب، وليس بالمستغرب، الدائنون يقفون على باب غرفتي دوماً، أقوم بتهدئتهم وإقناعهم بالصبر لأسابيع وأحياناً لشهور..

(ينتبه لرجل بدين ينظر إليه بصمت)

: مُهتمٌ بالسياسة، فكل حياتنا سياسة، الدنيا سياسة، كلنا جُناة في عين السياسة..

(يُقَطِّعُ أوراقاً صغيرة)

: من يدخل حانة السيدة آسِيَة سيرى كل شيء لافت، السقف مرتفع ومُزين بمصابيح فنية، وصور فوتوغرافية لأشهر من شربوا الخمر في التاريخ، أُودِعَت في براويز خشبية بيضاء مُعلَّقة على كل الجدران، ونوافذ مُقفلة بستائر ساحرة بلون خمري، ألواح زجاجية سميكة تسدُّ الشرفات التي زُينت من الداخل بأحجار ملونة، في جهة أخرى الكؤوس الموكأة، وأخرى دون غسيل، من دونها الطاولات التي غطاها الغبار، وعربات الخدمة المركونة في الركن القصي من الحانة، أكون غالباً عند مصطبة إسمنتية حُوِّلت إلى حوض غسيل أوان..

(يشد بقوة على يد صاحبه)

: لا يوجد في حانة السيدة آسِيَة من ينكر أني لا أقوم بواجبي كاملاً، سواء في الحانة أو في غرفتي، في أكلي، وشربي، وغسيل ملابسي وكيها، وفي نومي مع الجميلات أيضاً..

(يضحك)

: الجميلات خرجن من باب الحانة الخلفي، وأنا عاطل عن واجبي معهن..

(يضحك أكثر)

: بقوةٍ ضغطت سُهير بأصابعها المرتجفة النحيلة على سيجارتها، فأطبق فمها الشَّره عليها، لتتوهج جمرتها في دفء المكان، فانبعث

الدخان الطويل من بين شفتيها، لافّاً ملامحها كغمامة البخور، وَقَرَّبتها من شفتها الشهية، وأنا أُراقب الدخان الكثيف وهو يكاد يغطّي عينيها..

(ينظر إلى فتاة تهمس في أذن أمها)

: من الأسبوع المقبل أُتمُّ عامي الخمسين، يا إلهي، أُناور الخمسين **(يضحك)** اقتربت الخمسون، سأعتاد على العيش بعد هذا العمر بلا شك..

(يضحك بشدة)

: أعشق الليل في كل مكان، وكم أتمنى لو انقلب النهار ليلاً، بل حتى في النهار، أُغطي عيني بنظارتي السميكة السوداء، وفي غرفتي أُسدل الستائر ليسبح المكان في الظلام، النهار في المدن لا نرى من ضوئه غير الدمامة، الظلام موجود في كل مناحي الحياة في السياسة والأسواق، في المؤسسات والمتاجر، الليل حتى في الأنفس وخارجها..

(يتلفَّت)

: هناك ركاب نائمون! لأنهم مطمئنون إلى أن الله سينصفهم، مطمئون لأنهم ذاهبون إلى فرش النوم وأنهم عائدون غداً إلى مقرات العمل، ولا يهمهم أن يكونوا أول الواصلين أو الأخيرين، إنهم يغادرون ويعودون إلى الأماكن ذاتها، ولا يعيرون الجو اهتماماً خارج القطار أو

داخله، لا تدفعهم أي عجالة، ولا يهرش القلق قلوبهم كما يهرش قلوبنا..

(يدقُّ بقدمه الأرض)

: أركب القطار المتأخر دائماً عن موعده، خصوصاً قطار العاشرة والنصف، حين يكون بعدها بساعتين أو ثلاث وقت إغلاق الحانة، كعادة كل الحانات، زبون يبقى ليطلب الكأس الأخيرة أو يسأل عن الزجاجة الأخيرة، السُّكارى خصوصاً قبل الإغلاق يستحيلون إلى أطفالٍ مشاغبين (**ينتبه**) بِودِّي أن أعرف عدد الركاب في هذا القطار الذاهب كل ليلٍ إلى جهة الغرب، كم رجل أو امرأة من هؤلاء الركاب زاروا حانة السيدة آسِيَة، وقصدوها من المرات، هل قصدوا حاناتٍ قبلها؟ هم الآن مشغولون بالطريق وينظرون كل لحظة إلى ساعاتهم، ويشعرون بتحسن كبير بعد زوال مفعول السُّكْر من دمائهم..

(يفطِن فجأة)

: الكهل ذو القميص ذي الأزرار الفضية؟!..

(يخفت صوته)

: لم يجرؤ على الالتفات إلا مرتين مذ صعدنا القطار تلك الليلة، كان يراني بطرف عينه حين يحدث الجالسة بجانبه، تلك التي تضع على ركبتيها كيساً قماشياً أخضر، انظُرُ إلى ركبتيه وهما لا تهدآن عن

الاهتزاز، احتكاك قدميه أسفل كرسيه تُحدث صريراً مُنفِّراً للجالسين قريباً منه، وهو يراقب الذي أمامه..

(يُطلق تنهيدة عميقة)

: منذ صعودنا تلك الرحلة، وهو ينتقل من كرسي إلى آخر، يسكت عن الكلام قليلاً ثم يسأل الجالسة بجانبه والجالس أمامه، ظننته يعملُ ساقياً في حانة، لأنه يضع زجاجة سُكْرٍ رخصية، أفرغها الحارس من نافذة القطار قبل أن تحركه، ثم نهره لإتيانه بها على ظهر القطار، يلتفت كل مرة ولا أعلم هل ينظر إليّ أم إلى آخر؟!..

(تعلو نبرته)

: ثم عَرَفتُه فوراً، كان السياسي جاد الله، السبعيني البدين، ذا الوجه المُنقط بنمش داكن اللون، مربوع القامة، له ذقن خطّه الشيب، وشاربان قصيران نصف حليقين، رأيته في الحانة كثيراً، كان يبكي بين يدي السيدة آسِيَة، ويخبرها أن أولاده بعد تركه العمل السياسي اعتنوا به لأعوام، فتعبوا منه، وأجمعوا أن يتخلوا عنه، ويفاجئوه، لقد نسوه تماماً..

(يُومئ إلى صاحبه)

: قَدَّمَت له الطعام والمبيت، وزجاجة للسُّكْرِ بشكل ليلي، مَنَحَتهُ الأمل الذي قطعه أبناؤه، فلم يعد يفتقد أحداً، ولا يشتاق لأحد، طردته الحياة، وطرد الناس من حياته، سألته ذات ليل وهو مُنحنٍ

يبكي على الطاولة لوحده، وفي يسراه كأس كان قد أفرغها من ساعة، ولم يُجب، في تلك الساعة راحت أضواء الحانة تنطفئ تباعاً عدا عشرين أو أقل بسبب تأخرنا في صيانتها، فبدأ السُّكَارى يتهامسون محدثين ضجيجاً بطيئاً، وارتفع نداء إحداهن كانت قد هوت بحذائها على رأسه، واتهمته أنه قام برفع تنورتها إلى أعلى بطنها، فكثر الهمس الجانبي وراحوا يتزاحمون أمام الباب قاصدين الخروج إلى المدينة، كل هذا حدث وأنا أقف عند ذلك السبعيني جاد الله، وهو مُستمر في البكاء لدرجة أن صوته علا كصياح رضيع..

(ينظر إلى رجل وامرأة يتبادلان القُبل)

: وأنا أرى وجوه السُّكارى لم أمسك ببذرة أمنياتهم التي بلا شك أني رأيتها تطفو على ماء عيونهم حيث الوجوه لا تفصح عن شعور دقيق، لعله الأسى أو الفاقة أو أي أمر ألحَّ عليهم أن يكونوا زوَّاراً دائمين لحانة السيدة آسِيَة..

(ترتبك ملامحه)

: بدا لي أنهم مُتَعَجِّلُون، غادر جاد الله طاولته دون أن يرد علي، أو حتى ينظر إلى بنظرة، كان يلبس معطفاً أزرق داكن، ولكنه بالٍ، وبالكاد يتجاوز ركبتيه، واعتمر قبعةً بيضاء من الصوف الخفيف، حجب عني وجهه الباكي، وقصد حافلة كانت توقفت في الشارع المقابل للحانة، عند ساحة مستطيلة أحيطت بسورٍ حديدي باطنه

من السياج السميك، شمال الساحة أعمدة إنارة مصابيح ملونة وقوية، من خلفها ظهرت نورا الأربعينية، الضامرة اللَّعوب، عارية الكتفين والساقين، لوّحت له باليد وبها زجاجة خمر صغيرة، وفي الأخرى زجاجة ماء بلاستيكية نصف فارغة، أطلق إليها نداءه كطير جائع، ثم بدورها هَرولت نحوه، وأخذته إلى عمق الحي ولأول مرة أراه في قطار العاشرة والنصف..

(صمت . يُكمل كالمُنتَبِه)

: في تلك الليلة التي أخذته نورا إلى عميق الحي، وجدتها قبل الفجر مُترنحة جداً على كرسيّ يتسع لشخصين عند موقف الحافلات، فاغرة الفم، مُسدلة الجفنين، مائلة، وبجانبها جرعة الهروين، لا أشك أن جاد الله يعرف سرّها لكنه لم يستغله، فوجهه حين يطلُّ جانباً يفضح براءته وحزنه..

(يفرك راحتيه الجافتين)

: بعد ليلتين، جلسا بين حشد الثملين، يقتعدان طاولة لشخصين، مربّعة ذات طلاء رماديّ، تتأمّل أصابعه ذات الأنامل المتآكلة من الإكزيما، وهو يطويها على زجاجته اللامعة، ويتأمَّلُ تَنُّورتها الحمراء الضيقة، وَوَجهها الممتلئ، حَاسَّاً بِحَرَجها من اللَغَط المُنبعث من الأفواه الصاخبة..

(يلكز كتف صاحبه)

: حانة السيدة آسِيَة بين حيَّين، وكأنها تَفصل بين عالمين مُتضادين، أيضاً البيوت المجاورة للحانة قديمة، تعود لأكثر من أربعة عقود، والأسر التي تحرق أعمارها بين غرفها وجدرانها في رضى وصبر تامين، لا نعرف بأنها على قيد الحياة إلا حين نرى الغسيل المنشور على المشربيات والنوافذ وجوار الأبواب..

(تتباطأ حركة القطار تدرجياً، يقف . يُفتحُ بابه الآلي، يصعد شيخ أحدب يلبس لباساً شعبياً، يدخل مرتبك الخُطى، يرافقه رجل آسيوي من هيئته كأنه خادمه أو المشرف على شؤونه، يلقي نظرة عامة على الركاب ثم يأخذ مكانه في المنتصف بإشارة من المُنَظِّمَات داخل القطار)

: السيدة آسِيَة من بيت السياسة، كان والدها ياسين على علاقة مميزة مع البارزين في الحكومة، فبعد اتمامها دراستها الجامعية في فترة كانت البلد مطمئنة، ابتعثت للدراسة خارج البلد والتحقت بكلية الحقوق، وتخرجت في اليوم الذي اندلع انقلاب تاريخي في البلد، تم إخماده بطوق عسكري شديد، وحين عادت جذبت الأنظار هيئتها الأنيقة وجمالها الرباني، وصوتها النقي، كأنها لم تتزوج أبداً، لا يبدو في هيئتها ما يدل على ذلك!..

(ينظر إلى امرأة تُغادر مقعدها غاضبة)

: تزوجت بحمدون، صحفي شهير، يُشرف على أهم صفحات السياسة، وأنجبت منه طفلها الوحيد المريض، الذي مات بعد أيام من ولادته جراء مضاعفات المرض، فساعة زُفَّت إلى حمدون لم تكن قد بلغت الثانية والعشرين، وكان هو يكبرها بأربع سنين، وبعد أشهر قليلة من حملها، رأت والدها حائراً في دوامة السياسة، وقد أفلت من يده مقودها، وبعد عامين ونصف من زواجها، انتشرت صورها في الصحف والمواقع وهي تطوّق زوجها بيديها، وصوراً أخرى وهي تقف جواره أمام بوابة أفخم المطاعم العالمية، وصوراً أخرى قُرب الانتفاضة الشعبية الثالثة في تاريخ البلد، وصوراً أخرى مع والدها في إحدى جولاته التفقدية، وصوراً أخرى وهي تهمس في أذن قائد عسكري كبير اشتبه به مُؤخراً، بعدها اشتعل سوء تفاهم بين والدها وزوجها، فتمت سرقة بيانات حمدون ومعلوماته الخاصة وإيصالها إلى والدها، فلفّق له تهمة سياسية أودعته السجن إلى الأبد، وبعد أسابيع مات في سجنه إثر نوبة قلبية، وبعد أشهر اختفت هي أيضاً، وخرجت للرأي العام بعد سنوات قليلة..

(يقاطعه صوتُ طفلٍ لا يكفُّ عن البكاء . يُكمل)

: ليس بغريب فالسياسة مُستنقع لا يَطْهُر، لقد ظلَّ والدها من الشخصيات السياسية المؤثرة داخلي المجتمع وخارجه، في فترة كانت كل الحدود حولنا مضطربة وحساسة، تزوج وزير الداخلية

شقيقته، ونشأت بينهما صلة وتطورت إلى علاقة متينة، وهذا يعود لقدرة والدها على تمكين علاقاته واستثمار كل طاقاتها لمصالحه الشخصية (**يشدُّ قبضته**) الشخصية فقط..

(يسكت لسقوط كأس تتحطَّم على الأرض)

: لم تَرَ والدتها في حياتها، والدتها هي السيدة سَنيَّة، فبعد أن انشق جدُّ آسِيَة الدبلوماسي عبد الشكور عن الحكومة، وكوّن معارضة خارج البلد، انتزعها والدها من بين يدي والدتها، وبعد أسابيع اغتيلت والدتها بتفجير سيارتها الخاصة قرب القصر الدبلوماسي الذي كان يعمل فيه جَدُّها، وكأيِّ سياسي يرى القتل أمراً يشبه شربة الماء..

(يسعل طويلاً)

: لا أخوة لها، كما يُروى أن جدها عبد الشكور في شبابه هرب من الجيش كي لا يستمر في الحرب، وبعد مجيء الحكومة الأخيرة وَثِقُوا في دبلوماسيته، ثم تَحَوَّلَ والدها مطلع الألفية إلى أكثر رجال الحكومة بروزاً، واختير سفير البلد إلى بلد نشترك معها في الحدود، فقام بعمل شبكة علاقة شخصية داخل البلد الجار قبل أن تسيء العلاقات بيننا وبينهم، فكان الانفجار السياسي الكبير الذي اهتزت بسببه علاقاته كلها بما فيها علاقته مع زوج شقيقته وزير الداخلية..

(يتناول من حقيبته كتاباً ويتركه مقلوباً على فخذه)

: لا يسير السياسي دون أن يُحاط باللؤم والأنانية، كان والدها مُحاطاً بجماعات كثيرة من الخليلات والصديقات، وكانت ملامحه النَّظرة لا تُشير إلى عمره الحقيقي، وصار يختفي وراءها ويُخادعهن، كانت الحكومة وقتها قد وضعت تحت تصرفه ميزانية سِريَّة ضخمة، اعتقدن القريبات منه أن المبالغ الفلكية غير بعيدة عن جيوبهن، وكان منه أن أغدق عليهن بالكثير..

(يبتَسِمُ بأسف)

: السياسيون انتهازيون ومتلونون في آن، شاعت علاقاته النسائية في البلد، وصار محل تندر وسخرية من عامة الشعب، وغالباً محل حسدٍ من زملائه الوزراء والمسؤولين الكبار والصغار، وبعد أشهر قليلة تم بَثُّ خبر إقالته عبر أشهر المحطات الفضائية المملوكة للحكومة، وصودرت أغلب أملاكه، ليختفي عن الأنظار لأعوام، ثم شُوهد بعدها يسير برفقة ابنته آسِيَة في أحد المنتجعات الشهيرة، وخلفهما خادمتهما الآسيوية **(يتنَهَّد)** سيدتي لم تكن في شبابها إلا قمراً..

(يسير معتمداً على عصاه . يأخذ من حقيبته الثانية كتاباً . يعود)

: حتى قبل صعود والدها إلى كرسي السُّلطة، قالوا أنها كانت أجمل فتاة في حيهم بل وفي كل الأحياء المجاورة، بل وحتى البعيدة، كان جمالها هو فاكهة الأحاديث التي تستهوي رجال الحي بل حتى رجال المدينة، وكان فتيان الحي يتقاطرون لخطبتها، وقد يتراشقون

بالحجارة للظفر بها، ويتشاجرون أيضاً، صديق مع صديقه، وجار مع جاره، بل كلهم، وقبل أن يتزوجوا بأمهات أبنائهم..

(يُلاطف طفلة تُطل من كرسيٍّ أمامه)

: بعد وفاة زوجها حمدون في السجن، فاز بها الأشرم، رجل كان يعمل في تهريب الممنوعات، هربت أسرته من ويلات الحرب وهو رضيع، وبرز كأكبر انتهازي في التجارة المحلية تحت غطاء سياسي مُبهم رفيع، قيل إنه ليلة خطبتها جاء على سيارة فارهة سوداء، ونزل معه وبصحبته وجهاء المدينة، وعلى أفواههم كلامهم المنمَّق، وحشد من الرفاق الذين كادوا يسدُّون باب بيت والدها بالهدايا والزهور ومختلف العطور..

(يقرأ من الكتاب عدة أسطر في صمت . يُكمل)

: عَلِمَت بعد أشهر من زواجها، بعد ملاحظتها خروجه المتكرر للسهر الطويل كل ليلة مع خليلاته، في صالة أعلى متجره وسط المدينة، فتركته ولم تكلمه لسنين، واعتبرت الرجال بما فيهم والدها جنساً ينتمي للجريمة والخديعة، فلولا تدخل الوجهاء والأقارب ليوافق على تطليقها لبقيت معلقة حتى هذا العمر واشتعلت معركة المراهنات السياسية الرخيصة..

(يُغلق الكتاب ويعيده إلى حقيبته)

: مات قتلاً بالرصاص تنفيذاً لحكم الإعدام الصادر بحقه، بعد ضبطه يُهرب كمية كبيرة جداً من الممنوعات **(يُشعل سيجارة)** كل ما حاول أحد أن يُكلمها عنه أو يُذكِّرها به تتحاشى أن تدخل في تفاصيل حياتها معه، وما أعرفه أنها تريد أن تبقى مع الرجل الموسمي، تفسيري أنها ترى نفسها متوهجة بل ستطير لأنها على علاقة برجل بالرجل الموسمي؟!..

(يُخرج قارورة عطرٍ، ويُعطِّر نفسه وصاحبه)

: كل الرجال مَوسِمِيُّون. حتى أنا..

(يضحك)

: قد أكون وقد لا أكون، موسميون لكنهم سعداء دون أن يشعروا، شأنهم شأن جاد الله، وشأنهم كذلك شأن السيدة آسِيَة، فكرت أن أُحَدِّثَها بشيء، بإقناعها بأن تشفع لي عند أحد معارفها لأنتقل إلى العمل لديه، فقد جئت في ليلة ماضية لا أذكر الساعة بالضبط، ألقيت عليها التحية ثم شرعت في العمل مُتحيّناً الفرصة الجيدة لأحدثها بما أريد، وبعد لحظات كانت قد اختفت ولم أجدها لا في المطبخ ولا خلف آلة النقود، وحين خرجتُ من باب الحانة لرمي كيس النفايات الصغير، رأيتها عند سيارتها مُنحينة على أرنبين صغيرين، تُطعمهما وقربهما قفص كبير لببغاء كبير، التفتت إليّ وقالت:"فيما وقوفك هنا؟ ألا يوجد عمل لتنهيه؟". رأيت وجهها لأول

مرة خارج إضاءة مصابيح سقف حانتها، حيث ضوء القمر ساطع على بشرتها، وعلى الفور لاحظت أمراً، فقد مشت إلى نقطة تجمَّع فيها فتيان يُضَاحِكُون فتيات يأكلن المكسرات أكثر ممَّا يَتَحَدَّثن معهم، وَيُلْقينَ بقشورها على الأرض، نَهَرَتهم بغلاظة، وبعثرتهم كالطيور الهاربة إلى الشوارع الضيقة، ثم أشارت إِليّ أن أُكمل عملي، فسمعت ارتفاع صوت الغناء والدفوف من داخل الحانة، كانت فرقة غنائية أحضرتها بمناسبة اكتمال عشرين عاماً على إنشاءِ حانتها، مددت عنقي إلى فوق لأرى كل النوافذ مُشرعة والنسوة يرمين الورد يُهنئنها بهذه المناسبة، فارتفع الغناء داخل الحانة، ورقصت الساقيات مع السُّقاة والزبائن..

(يسير بخطىً كسولة تجاه الخلاء ويدخله . يعود)

: لقد كان علي أن أفرح وأشاركها فرحها، كان في منتصف الحفل، زجاجات فاخرة، وأنصاف زجاجات، ولأن الجميع اعتاد رؤيتها، استهجنوا شروع جاد الله بالبدء قبل السيدة آسِيَة وضيوفها، بدأ بكأس صغيرة، ثم بكأسين أكبر قليلاً، وسخرية نورا وضحكها بجانبه، وكأنها تُدرك مُسبقاً ما يدور في رأسه، غير بعيد منهما أَخَذَ الرجل الموسمي الكأَس وَقَرَّبَهُ من شَفَةِ السيدة آسِيَة، فشَعَرَت أَنَّهُ يُغَازلها، وَضَع يده فوق ردفها، ثَم قَرَّبَها إليه قليلاً، وراحت تهمس له دون كلام، رشفت من كأسه، وأعادته إليه، انطلقت الأغاني وزغاريد النساء الشهيرة،

وارتفعت الرؤوس، الرجال والنساء، ولأني واحد من عاملي هذه الحانة، واللحظة هذه بالذات، انطلقتُ أُغَنّي وأرقص بينهم ومعهم، أقدام تَدُكُّ الأرض، والأغاني يَطغى بعضها على بعض، يرافق ذلك كله، صوت أوتار عود شرقي، واستمر الحفل حتى منتصف الليل بقليل، ثم وُضِعَت الصينيات: المقليات . المشويات . الحلويات . المُعجنات . السوائل الحارة والباردة، وَصُفَّت الأقداح، واستمرت النقرات على الأوتار يُحاذيها الضرب على الدفوف، حتى أُنهك الجميع، وتراخت الأكف عن التصفيق والإيماء، وذبلت الأفواه عن الضحك، أمَّا المقهى المقابل للحانة فينظر زبائنه إلينا، وكأننا حلزونات مُلونة لا عدد لها..

(ينظر في صفحة كفّه اليمنى . يُكمل)

: كان صخباً ماتعاً جداً، قد بَدَّدَ الظلام الخامل أمام باب الحانة والكسل الذي يتباطأ في الطرقات، كان مَرَحَاً عَائماً، أصواتٌ ووُجُوهٌ متمازجه، وروائح غير مألوفه، عن يميني نادلون يدفعون عربات عليها أطباق صغيرة ومتوسطة، وامرأة لأول مرة أشاهدها في الحانة، كانت طيلة الليل تنظر في الحضور وتداعب قلادة عنقها المدلاة إلى أعلى صدرها، وعن يساري امرأة بدينة ترتدي ملابس شعبية، بجوارها صديقها النحيل يرتدي ثياباً أنيقة، ومن جهتهما فطنت لزليخا تُنظّف المرايا بصحيفة مُبلّلة، كنت وقتها أُشاغب بنظراتي رجلاً في غاية

البدانة، وجهه مستدير، وشارباه للتو محلوقان، وذقنه صغيرةٌ مُربّعة مُرتّبة نصفها شيب كثيف، يَعُضُّ على سيجارته المنطفئة، وعلبة الماء في يده وينظر إلى وجهه في زجاج الطاولة، ثم راح يُمطرُ أحدهم كلاماً غير مباح، أزعجني تبرّمه وكثرة هذيانه، حتى غادر الحانة دون أن يشرب علبة الماء كاملة..

(يرفع قبعته ويتفحصها)

: نورا! تَنَهّدتُ حين شاغلني ثوبها وهو يَشفُّ عن اللهب: جسمها الضئيل ووجهها الطويل ذو العينان السوداوان الواسعتان، والتي يختلط فيهما الحزن والجرأة معاً، ألمحها وهي ترشف بشفتيها الطريتين فَمَ الكأس، حيث يُسرع لسانها عليهما بعد كُلّ رشفة، وفجأة، فَطِنَت لوخز نظراتي، وراحت تبتسم إلى جاد الله بشفتين حمراوين رقيقتين، وأسنان بيضاء صغيرة، لتشدّ ثوبها المنحسر عن ساقيها هرباً من بصري السارق..

(يجمَعُ كَفَّيه مُبتسماً)

: موسيقار تلك الليلة ثمانيني أستاذٌ في فَنِّه، قمحيّ اللون، له شاربٌ كبير فوق شفتين صغيرتين، وشعر مسترسل تطلُّ من جهات متباعدة شعيرات سوداء، وفوق عينيه الواسعتين حاجبان كثيفان ملتصقان، في فمه سنّان من ذهب، أدهشنا مع الثملين بمقطوعاتٍ موسيقيةٍ، في حانةٍ تتلاقى فيها التمتمات الحذرة مع القهقهات الصاخبة..

(يضع علبة التبغ على مسند الكرسي)

: لم يمكث الموسيقار طويلاً لعمره الكبير، فقد مَسَحَ وجهه المبتلّ عَرَقَاً، ثم أتخمت السيدة آسِيَة جيبه بالمال، ليلقي على الجميع تحيَّة الانصراف، وتلمس قدمه أولى درجات السلَّم خَارجاً، مُفترشاً المقعد الخلفيّ لسيارة الأجرة، لتمضي به، واستمرت فتنة هذا الصخب إلى قبل الفجر، محفوفاً برنين الكؤوس، والضحكات الماجنة تجيء من كل اتجاه، كأنَّ جمجمتي أُتخِمَت بالأفكار المجنونة، واحتشدت داخلها صورٌ لا نهاية لها، وحين خرجنا، أدهشتنا عند الباب مشاكل الفتيان الليليّة: العراك، الشرطة، العمالة العابرة..

(يُطالعُ شاشة هاتفه)

: وبعد كل هذا المرح لم أُحَدِّثها، أبداً لم تكن المناسبة التي هُيئت تسمح لي بأن أُحَدِّثها بأمرٍ كهذا، فقد عَبَّرتُ عن فرحي بالصعود إلى سطح البناية وأَطَلَّيتُ على ليل المدينة والشوارع، ونساء الحانات الأخرى وهنَّ يعبرن في كل اتجاه، التقطت لهنَّ صوراً داخل قلبي **(يضحك)** رأيت أيضاً شاحنتين متعاقبتين، بينهما مسافة عشرة أمتار، صفّان من العمال على مقاعد متقابلة فوق كل واحدة، رؤوسهم تتمايل تحت أعمدة الإنارة، تُمسك أيديهم بآلات، بدت لي أنها آلات حفر، تتقدم الشاحنتين سيارة حوض حكومية، عليها ستة عمال آخرين..

(يَصمت . يَشرب . يُكمل)

: غادرت فكرة ترك الحانة رأسي، صحيح أني بقيت بعدها لأيام مُشَوَّش المزاج، وليس في نفسي أي رغبة أقوم بها أو أخطط لها، مضيتُ أستمتعُ برائحة الخمر حال تحضيرها، وجاءت تلك الساعة التي غذّتها، كانت مُغنّية تُغنّي على خشبةٍ مستطيلةٍ طويلة، وتصفيقٌ وصفيرٌ يقتفي مقطوعاتها القصيرة، حين قفز أحد السُّكَارى يجري بين الطاولات ثم ظهر آخران يجريان وراءه، وفي يديهما زجاجتان طويلتان، يلحقانه وهو ماضٍ يجري بين الطاولات مُتحاشياً زجاجتيهما وقهقهته مُتصلة دون انقطاع، فَتَعثَّر على طاولة سيدتي، وكادت أن تسقط خلف سقوط الرجل الموسمي والسَّكْرَان مستمر في قهقهته، فَصَمَتَ فجأة، بعد أن هَوَت زجاجة أحدهم على جبينه وطيَّرت دمه على الحائط والأرض وثياب الزبائن..

(يُفكِّرُ قليلاً)

: زَمْجَرت سيدتي لأول مرة بشكل لم نعهده حين تغضب، وبدل ذهابها لطلب الشرطة اقتربت من اللذين لَحِقا به، وركلت زجاجة برجلها فتحطمت قربهما وسال ما فيها من خمر فوق الطاولات وعلى الملابس، وقف الجميع ينظرون غير مصدقين، فعلمنا أنها تستعد لتسليمهما إلى الشرطة بدلاً من طردهما، وحين حضرت الشرطة كانا قد اجتازا الباب هاربين..

(يبتسم لامرأة خارجة من الخلاء . تُغطِّي وجهها بيديها)

: قُبِضَ عليهما بعد مسافة طويلة من الحانة، وتم إرسال جثة السَّكْرَان الأول إلى المشرحة وفُتح تحقيق مع سيدتي، فأسفر التحقيق بعد أسابيع عن براءتها..

(تهدأ لحظتها حركة القطار وتروح عجلاته في التباطؤ، ويفتح بابه الآلي فتصعدُ امرأة عجوز ترتدي خماراً أبيض طويلاً، تلوح على ظهر كفّيها حبات النمش اللامعة، تتقدمها طفلة شقراء في العاشرة أو أكبر قليلاً، وهي تشير إلى مقعد بعيد)

: طَوَت سُهير ورقة صغيرة وَدَسَّتها في جيبها الأيمن، وأخذت سيجارة دون أن تُشعلها ومضت تُحرِّكُها سريعاً بين يديها، ثم أشلعتها، أبطأتُ أُراقبُ دخان سيجارتها البطيء، ورائحته تبث الاسترخاء في أجفاني وأعضائي، كدتُ أستسلمُ للنعاس..

(يُغَيّرُ نبرته فجأة)

: الطعام المُقدم على طاولات الحانة ينقصه الطهي الجيد، كل السُّكارى بما فيهم جاد الله يعترضون باستمرار على الطعام الذي يقدمه المطعم الذي أبرمت معه السيدة آسِيَة اتفاقاً تجارياً لصالح حانتها، كانت الوجبات المقدمة سيئة، وسعرها مرتفع، يحكم ذلك علاقة سيدتي بالرجل الموسمي، بل وعلاقة تثير الفضول لشبهتها، وهذا ملاحظ كثيراً حين يجيء كل ما صارت الساعة التاسعة والنصف

ليلاً مُتهادياً في مشيته ليجلس بجانب الجالسة أمام آلة النقود في هدوء، فيكوي ذيل سيجارته بيد، وباليد الأخرى يُقرّب المنفضة، حتى تُقبلُ إليه سيدتي وابتسامتها لا يتسع لها وجهها، وقد أحدبت، كأنَّ على ظهرها أحجاراً كبيرة من السنين..

(يَصُبُّ كأسين . يُناول صاحبه كأساً)

: وجدت نفسي يوماً أمام مغامرة من نوع لم آلفه أو أصادفه..

(يُفرِغُ الكأسَ في جَوفِه)

: كان ذلك في بداية عهدي بالعمل، كنتُ ساهراً في تلك الليلة البعيدة، حديث عهد بالعمل في الحانة، وتعاملي مع أناس سُكارى مخاطرة بلا شك، أراقب العالم البعيد عن واقعه، طلاء جدران الحانة المشوهة ببعض الكتابة السَّكْرَانة كأصحابها، روائح الزبائن وهم خارجون تشبه تماماً رائحة روث الأنعام، ولا أنسى رائحة الألم والتعب الخارجَين مع رائحة السُّكْرِ من أفواههم الضاحكة والصاخبة، ما أبهرني هي تلك المرأة التي قتلت أحدهم في قلب الحانة، وبقيت نقط دمه لأيام حتى اسودّت..

(يقترب فتىً منه . يُصافحه بقوُّة . يذهب)

: عجزتُ عن قراءة أفكار السيدة آسِيَة حينها، أمضت أياماً لا تُحب الكلام مع أحد إلا بعد إغلاق الحانة نهاية العمل، هي لا تُحسن مجادلة الناس، وكلامها يظهر من عينيها كطائر بريء، قالت لي

مرة:"أستطيع أن أقنع جرذاً . كلباً . وُطْوَاطاً . ما عدا الآدمي، لأن الآدميين لا يريدون أن يقتنعوا أو يفهموا خصومهم، بل إني لا أعرف كيف أُباشر كلامي مع أحدهم وأحتار في وضع إيضاحات على طلباتهم أو أسئلتهم، عدا الرجل الموسمي فهو كالعصفور حين يعبر، ولو أنه غالباً يَتَعَمَّدُ إهمال أسئلتي وغيرها"..

(يستغرق في التفكير)

: ذات مرة، بعد غياب، وكنا في رجفة البرد، لم نرَ شبهاً له مذ عرفنا الفصول الأربعة، وبعد أن توقف المطر الذي حوّل الشوارع إلى نهرٍ من الوحل الطيني، واستأثر بنفايات المدينة، رأيته واقفاً معها، وقد ظهرت علاقتهما كعلاقة البرد والمطر، كانت قد بلغت قسوتها معه، مثلما رضت بأقل خسارة معه، فَكَّرتُ كيف سأقضي العمر أخدم في هذه الحانة، لقد سبق لعينيّ أن بكتا من ثقل الصبر على روحي، ما أقوله لكَ الآن مؤسف لم أكن لأقوله لأحد قبل الليلة، لم يكن يدور في نفسي أن الرجال يمكنهم البكاء من كثرة الصبر، لهذا أمعنت في البحث عن عملٍ جديد بعيداً عن لوثة أصحاب الحانات..

(ينصرف إلى نهاية القطار . يُجري مكالمة هاتفية . يعود)

: لم أُفلح، عدت إلى العمل في الليلة التالية، وجلست قرب حوض غسيل الأطباق، رحت كما كنت في السابق، أعدُّ قطرات الماء التي تسقط من سقف المطبخ، بسبب سوء تدبير السباك: تك . تك .

تك . تك . تك . تك، قطرات مُلَوَّثة تَكَوَّنت بعد ساعة إلى بقعة مائية سوداء، فتداركتها عاملة النظافة بمكنستها الكبيرة لتجرفها إلى البالوعة الواسعة، فالمطبخ ثلاثة أمتار في ثلاثة أمتار ونصف، تخنقها دوماً رائحة الاحتراق، أما الأرضية المسواة بالبلاط فبها حُفَرٌ تتسرب منها روائح الغائط..

(يتشبث برأس الكرسي المقابل)

: هناك تجارب في حياتنا تنتظرنا، فهي ما تزال عذراء لم يفتضَّها علمنا بعد، وتكون حلَّاً لأزمة أبطأت تعصرنا، مثل ليلة هادئة من العام الماضي، كنت متفائلاً على غير عادتي، وعلى بعد خطوات من طاولة رجلين قد غادرا بعد أن شربا زجاجة ونصف الزجاجة، وتركا كأساً واحداً مكسوراً، عثرت على ساعة ذهبية، مُعلّقة على ديكور الكرسي، لم أهتم بها فقط تساءلت: لماذا ينسى أحد الرجلين ساعة ذهبية بهذه السهولة؟..

(يبتسم . يشرب قليلاً من كأسه)

: التقطتها، كانت فاتنة، لم أرمِ كل جرأتي في أخذها فوراً، انتظرت لحظات، فقد يعود صاحبها ليسأل عنها، ولم يعد، وإن عاد، لن يسأل السَّكْرَان عن شيء غير الزجاجة..

(ينظر إلى ساعته)

: سمعت صوت مشي، فإذا به مشي سيدتي، أعرف صوت كعبها، توقفت عن تأمل الساعة وأخفيتها في جيب بنطالي، كأن عبورها منحني فرصة أخرى للتفكير بأخذ الساعة، أو بانتظار سائل قد يدخل الآن ليسأل عنها، كل الأعين حينها صارت متشابه، وحين تجاوزنا الثامنة ليلاً، انتفت نية التراجع في قلبي، بعد أن فات الوقت على السيدة آسِيَة وصاحب الساعة، فجلست قرب حوض غسيل الأطباق، وأخرجت الساعة أتأملها، شعرتُ بعينٍ تُراقبني كانت هي عين سيدتي، رأيتها من خلف رف استقبال الصحون المصمم في منتصف باب المطبخ، رفعت يدي وبها الساعة، وأنا أعرف أنها تسأل نفسها من أي طاولة عثرت على هذه الساعة اللامعة في يدي؟!..

(صمت . يُكمل بنفاد صبر)

: أخفت نظراتها عندما التفتُّ، وَتَظَاهَرت بأنها تحمل الأطباق على الرف، رَفَعتُ الساعة من جديد وشعرت بها وهي تُعاود النظر، ورفعت صوتي:"ساعتك هي ذكراك الجميلة يا أبي، أحملها كل يوم وأدعو لك"..

(يضحك)

: اختلف صوتي حينها، وانقلب لوني من هول الخوف، وأنا أعرف أنها رأت الساعة في يدي، فكرت لحظتها أن أرمي الساعة فوق حوض الغسيل وأهرب من الحانة دون رجعة، لظني لو أنها سألتني

فلن تُفلح توسلاتي في إقناعها أن تصفح عني، وتضطر لطردي بتهمة سرقة الزبائن، لكن شيئاً لم يكن لولا قيامي بما قمت به..

(ترتفع نبرته بلهجة استهتار)

: رأيت غرابة في تحركاتها، فحين تدخل المطبخ تدفع الباب بقوة وتدخل بخطوات ثقيلة ومزعجة، وحركات جسدها منفعلة، وفي نظراتها يأس من اتهامي، أمضت ليالٍ طويلة قبل إغلاق الحانة، وهي تنظر إليَّ وأنا أنقل الكراسي إلى الركن واضعاً بعضها فوق بعض وأخرى فوق الطاولات، وأكشط الأرض جارًّاً نعليّ كأني أتزلج..

(يضحك)

: حين تكون الحانة فارغة من الناس، وغالباً تكون سيدتي تلبس جلابيتها الحمراء المُرَصَّعة بالذهبي فتمطرني بأوامرها قبل أن يقصدها الرجل الموسمي، ففي إحدى الليالي فتحتُ له زجاجة ووضعتها أمامه، وَهَمَست لي:"اذهب". قلت:"لا أستطيع أن أترك الحانة فارغة، فكل زملائي غادروا بعد نهاية العمل". أخذ هو الزجاجة ونهضا، وقصدا الجهة المظلمة من الحانة..

(يَتَمَطَّى)

: أحسست أنه كل ما زارها يشعر بالشيخوخة، وبحاجة لامرأة تعتني به، إلا أن سيدتي أفصحت له مرة أنها تكره بناته وأبناءه، ولم يرتح ألم قلبها إلا حين عَلِمَت بموت زوجته بالسكتة الدماغية بعد أن

تشاجرت معها قبل أعوام قليلة حين انكشفت علاقتها مع زوجها الرجل الموسمي..

(يُعطي عامل النظافة القريب علبة ماء)

: السيدة آسِيَة لا يُكِنُّ لها الآخرون احتراماً بما فيهم السُّكَارى، يتشاجرون معها كثيراً، وحين تُبرهن قانونية أسعار الحانة، يشتمونها ويتركونها غارقة في ماء انفعالها، هكذا هم وهي طوال الأعوام التي عَمِلْتها في الحانة، وأتساءل دوماً: هل تعرف أنها بالرجل الموسمي تزيد تعبها تعباً آخر؟..

(تقترب امرأة تعرفه . تميل عليه وتُقَبِّلُهُ طويلاً . تنصرف)

: ما أعرفه عنها أنها خارج الحانة تُهَيّئُ طعامها بنفسها، وتأخذ أدويتها بانتظام، وتأخذ وقتاً جيداً لنومها، وتخرج مشياً في نزهات قصيرة بمفردها، ومن هيئتها فهي تعتني جداً بأناقتها كطفلة مُدلّلة، وتستقبل زبائن الحانة بالابتسامة..

(يرفع جمرة سيجارته)

: أحاول أمامها أن أبدو هادئاً ومنشرح الخاطر، وأنا في نفسي أقول متى يتبدل هذا الحال؟ أحياناً أشعر أن لا ذنب لها فهي امرأة تُحب، وفرصتها الرجل الموسمي، الذي أهملها ثم عاد، أخبرني الزملاء في الحانة أنها في شبابها وذروة جمالها، كانت تضع شالاً من الزهر لا يفارق عنقها، وَتُسَرّحُ شعرها بنفسها، حتى أحمر الشفاه القاني،

كانت ترسمه باحتراف إلى أن بلغت هذا العمر، وهي تُتقن كل هذا بل وتُنصت إلى المقاطع الموسيقية والأغاني كمن يُنظِّمُ مزاجه..

(يَهزُّ رأسه سَلْباً)

: كل امرئ تلد له الحياة ظروفه وحظوظه، هي الحياة كذلك حتى والمرء يستعد لموته أو يخطُّ وصيته، ولا أظن امرأة كالسيدة آسِيَة تفكر في الحياة فقط، هي تحسب للموت حسابات طويلة، الشهر الفائت حَضَر المحامي الحكومي، وطلبت منه البدء في إجراءات كتابة وصيتها، سمعته يقول لها:"سيدتي نحن نسير في هذه الإجراءات من أعوام، وأنتِ في كل مرة تطلبين حضوري لتغيير بنود الوصية، وإضافة بنود أخرى". كانت تنظر إليه وكأنها تتعرَّفُ إليه، يَجُرُّ رجليه مُستلذّاً بحكِّ نعله السميك على أرضية الحانة، وكأنها مهمته الأولى في قدومه إلى الحانة..

(يُقبّل يد امرأة صافحته بحرارة)

: عملها الواحد والوحيد هي حانتها، كل ساعاتها تصبها في الحانة، كيف تتابعها، وكيف تسير العمل فيها، وكيف تحافظ على السُّقاة والساقيات فيها كي لا يتسربوا للعمل في حانات أخرى، وكيف تتعامل بذكاء مع الزبائن، وكيف تُجنِّب المكان مشاكل السُّكَارى وهي مستعدة دوماً لتحمّل الكثير في سبيل ألا تفشل الحانة، لأنها مشروع حياتها، بعد أن صارت خارج المنظومة السياسية، وحين صار الرجل

الموسمي ركناً رئيساً في حياتها صار كل ما انتهيت من رصّ الكراسي والطاولات قبل الإغلاق، يجلس قربها على طاولة في الركن المظلم ويُخرجُ كل منهما سيجارته ويأخذان سجارتين معاً، وهما ينظران في صمت إليَّ وإلى الزبون الأخير وهو يستعد للخروج..

(يُحدِّقُ في مُجمل الأوراق التي دوّنها صاحبه)

: لم أعرف حتى الآن سر علاقتهما، أكثر ما أعرفه أنه كثيراً ما يترك كرسيه ويغادرها إلى المطبخ ثم يعود ليعطيها ورقة كل مرة، لا أسرار بينهما أكثر من معاملات المال والأعمال، حاولت مرة حين خرج أن أتبعه، فخرجت خلفه ولكن ظلام الشوارع قد أخفاه عن عيني، فتوقفت أتلَفَّتُ في الظلام الكثيف، هو وسيدتي، كلاهما غامض، ففي إحدى الليالي سمعت باب المطبخ يُفتح خلفي وخطواته تتجه نحوي، ورمى بأعقاب السجائر التي امتصَّها في الحوض، تلك الليلة لم تشبه أي ليلة، استندت إلى عمود الإنارة وبصري يتعقب العابرين وكأن مهمتي تعداد الداخل والخارج من الحانة..

(يَمُرُّ بيده على شعر رأسه)

: أعرف الشارع الممتد أمام الحانة، فالليل هناك له روائح الربيع المنعشة، أضواء النوافذ لا تنطفئ، وأبواب البيوت هناك تصدح من خلفها أغانٍ عِذاب، وصديقات سُهير الجالسات على الكرسي الخشبي العريض ذي الأرجل الحديدية، يُدخِنَّ ويتسامرن مع الزبائن

الذين صاروا وجوهاً يعرفنها ويعرفوهن، رأيت الرجل الموسمي وبرفقته آخر، يمران ويعودان يتحسسان آخر مومسٍ في الشارع، فصادفتهم زليخا خارجة من الحانة بعد انتهاء فترة عملها، كانت تمضغ لبانة وتنتظر أحداً، وتلتفت كل لحظة للشارع من جهتيه..

(ينظرُ إلى طفلين يركضان داخل المقصورة)

: بالطبع فهم يرونها فريستهم المنتظرة، فجأة، اختفت سريعاً في المرتبة الخلفية لسيارة كبيرة يقودها أسمر متين، فلم يبقَ في الشارع سوى وقع أحذية مستعجلة وأخرى مترددة، هذا سلوكه المعتاد، الزبون الأخير في الحانة، عندما يرتب لصفقة خمور جديدة يركض إلى حانة السيدة آسِيَة، ليكرع بهذه المناسبة زجاجتين وثالثة في الليلة التالية، هو لا يطمح لأكثر من زجاجتين، والنظر في ملامح سيدتي وهي تقف خلف آلة النقود تُحصي مكاسب الليلة..

(يُرَدِّدُ لحناً قديماً . يُكمل)

: لم تكن زوجته مختلفة عنه كثيراً كانت حين تغضب منه أو تتشاجر معه تأتي إلى الحانة مع أول زبون فتسْكَرُ لدرجة أن تَلْعَقَ قَاعَ كأسها قبل مغادرتها وهي تطمع في كأسٍ أخرى..

(يرتفع صَوْتُ احتكاك راحتيه)

: الليل صديقي، أنتظره بصبرٍ كبير، ولا أحب صداقة النهار رغم ما فيه من عمل بسيط، فغسل الأطباق وكشط الأرضية وتلميع الكؤوس

وصفُّ القناني أَحَبُّ إلى نفسي في الليل، عدا وقوفي عند باب الحانة أُدخّن وأُحصي العابرين، والعابرات..

(يَبتسِم)

: بالتأكيد أُحصيهنّ أولاً..

(يَبتسِمُ أكثر)

: يُطربن قلبي، حين يكثرن الحديث أو يعطرنني بعطور الطرب، أنُظُرُ إلى الأعين الباسمة، ويهوي بصري على الصدور المضيئة..

(تهدأ حركة القطار، يقف ولعجلاته صوت مُنفّر، يُفتح بابه الآلي، فيصعد فتيان أفريقيّان طويلان، يعصبان رأسيهما بعصابتين حمراوين فاتحتين مرقطتين بالأسود، وهما يتحدثان بلغة الإشارة، وأعينهم الواسعة تدور في جمجمتيهما دوران الحذر والترقب، في يد كل منهما كوب شاي ورقي، يجلسان متقابلين غير بعيد، ويستمران في لغة الإشارة)

: شَرَعَت سُهير بقية الطريق تُدخِّنُ بشراهة، فأعمدة دخان سجائرها كأنها تنبت كل دقيقة من بين أصابعها، مُمتدةً إلى السقف، لتتبعها أعمدة أخرى..

(يتذكَّر ويبتسم)

: ذات ليل جاء زبون إلى الحانة، شابٌ أسمر، مظهره حالم، وملامحه داهئة، وفي نَظَرَاته طفولة برّاقة، نهضت السيدة آسِيَة من

أمام آلة النقود، وحرّكت أطرافها كي يتحرك الدم فيها، استعاد وجهها طراوته، وأزهرت ملامحها كبستان مُغرٍ. "زجاجة أخرى" قال أحد السكارى ولم تهتم سيدتي للزبون لأول مرة، وهي الحريصة على راحة زبائن حانتها، كان الشاب الأسمر الذي جاء حينها يُحدِّثُ آخر عبر هاتفه بصوتٍ عالٍ مكرَّرٍ مسموع:"لا أريدك أن تتبع طريقي هل فهمت؟"..

(يُحيّي رجلاً يُحيِّيه من أول المقصورة)

: تَصَنَّعَت سيدتي عدم سماعه لربع ساعة، وبعد ربع ساعة أخرى، أقفل هاتفه، فأمرتني أن أضع زجاجة على طاولته وشرع يشرب في صمت حتى اقترب وقت الإغلاق، وفمه المرتعد يُردد:"حين أُنهي زجاجتي سأقتلكم جميعاً، فرداً فرداً"..

(يضحك)

: وكم سيحتاج من الزجاجات لعمل كل ما ذَكَرَه؟! ربما المئات من الزجاجات، جاءت زليخا إليه بزجاجة فوق صحن فضي دائري مزخرف، وقفت يمينه، وأراقت قليلاً في الكأس وتوقفت تنظر ثم ملأته، أفرغ نصفه فوراً وبدا واثقاً من جودته، وعيناه تشكرانها وهي سائرة لخدمة زبون جديد، وما إن أكملت زليخا دورة بين الطاولات إلا وهو يناديها رافعاً كأسه وطالباً زجاجةً أخرى، واستمر بهذه الحالة إلى وقت الإغلاق..

(يسعلُ ويُغالب سُعاله بظهر يمينه)

: هو جندي فذ، ففي معركة انقلابية قديمة، وبعد ليلةٍ تضاءل فيها دُخان البنادق، وقتال دام لنصف يوم، رفاقه غدوا بين فسطاطين، فسطاط القتلى وفسطاط القاتلين، وانقسامات في صفوف الخصوم، أفادت أهداف ومقاصد الحرب، كان باسطاً سلاحه على فخذيه عرضاً، جالساً بين تسعة من رفاقه في طقسٍ نفسيٍّ مهيءٍ لخوض هجوم جديد، كانوا في انتظار قائد الفرقة التي سبقتهم ليعود ويسلّم القائد الآخر إكمال دفّة قيادة الحرب..

(يبتسمُ ابتسامةً يُخالطها الأسف)

: بدت الحرب كنهرٍ من الدمِ القاني، يتلوى على قاعٍ أجرد مريض بالسحرِ غير بعيد عن شفير بركانيّ..

(يتأسَّى)

: أرى صور البراءة المتروكة على رف الحروب السالفة، كأننا نركض في أودية السهر الطويل، ونصعد هضاب الولع الأخير، ونزل سفوح الندم القريب..

(يمسحُ عَرَقَ جبينه)

: توقّفت عربة للجند سائقها جندي أسمر حليق، والقائد جواره، نزلا وفتح السائق باب الحوض ومضى يجرّ أكياساً من النايلو المتين، بيضاء شبه مطويّة أكثر من مرّة، وقام بصفّها أسفل منه، كانت تلك

الأكياس هي ما بقي من قتلى المعركة، كانوا أربعة قصفتهم مدفعيّة من جهة الخصم، حين كانوا يطلقون الرصاص الحي، حكّ ذقنه محاولاً ألَّا تسقط دمعة مصدرها خشية ألَّا يعود..

(يبحثُ في جيوبه)

: الحرب كما وصفت لك، نهرٌ من الدمِ، يتقيؤُهُ فم الأرض الهرمةِ من مواطئ الحروب، ومسالك الجوع، وانسلال العطش في تضاريسٍ يائسة، إنها أكثر وأطول وأكبر ممّا وصفت، إنها صعبة على الواصفين..

(يحني رأسه)

: كان باسلاً في تلك الجولة، فقد تقدّمت المصفّحات وسيطرت على مساحة كبيرة جداً من الأحياء، واستردادها من الغاصبين، وتمكّنت الطائرات المروحيّة قبل تقدّمهم من تطهير المنطقة حتى تتعافى تماماً من أي مُختبئ يترصّدهم، أو قنّاص فيشقّ خطّتهم، مضى بدقّة سلاحه يبيد من يفرّ أو يمرق أمامه من الخصوم، وتمادت نفسه الأمارة بالقسوة بأن أذن لنفسه بزجّ ثلاثة من الجرحى في حفرة صغيرة مليئة بالقيء والغائط ودفنهم دون تردّد أو خشية من أن يعلم قائد المعركة، كان يسائل نفسه لحظتها: أين يتجاور الحب والحرب في قلبي؟، فانتعلت الحيرة تفكيره ليصرخ في رفاقه:"لا تبقوا منهم أحداً"..

(يُطلِقُ أَنَّةً طويلة)

: لا أحد يُبرئ شكّ أحد في هذه الحرب! ولا أحد يمحو قلق أحدٍ! لقد مَوَّهَ الطَّيشُ اللئيمُ ملامحنا جميعاً، وكأننا نغني في صحراء القلق..

(تنزلقُ دمعته)

: عاد في عربة الجند مع رفاقه الأحياء، وآخرين في أكياس النايلون، يراقب اهتزاز جثثهم مع ميلات الطريق ونفضاته، يداه تربطان على ساقيه، وذقنه على ركبتيه وسلاحه معترضاً من فوق بطنه وفمه خارج من سياج العربة، غناء رفاقه يتصاعد بأصوات متألمة لموت البعض، وأخرى منتصرة لموت الخصوم، كأنّه ينتقم من خصم لا يعرفه..

(يدافع عطسة مباغته . يدرك أنفه بمنديل)

: توالت المعارك في كل طريق وممرّ مُشاة، وتقدم الجيش حتى أحكم الطوق على مناطق كثيرة، رغم ذلك يعيش السكان كأي سكان مدينة، يذهبون ويجيئون ويسهرون ويُشغلون لياليهم حتى الصباح، بل حتى بعد ما تتوقف القذائف وينحسر صوت الطائرات **(يبتَسِم)** كذلك الحب لم ينأى عن ذلك، أضحى العشاق يلتقون بعشيقاتهم تحت السماء المضاءة بالصواريخ ونيران الأسلحة، بينما حضر الحب كالحرب تماماً، مُلتهباً، مُتحمّساً، مُتوهّجاً..

(يبتَسِمُ ابتسامة يُخالطها الأسف)

: في آخر حرب شارك فيها، وحين هدأت نار السلاح وبرد الزناد تحت كل سبّابة جندي مترصّد، أُمروا بالاصطفاف العسكري أمام عربات نقل الجنود، على وجوههم صبغة التعب، وملامحهم تقول كل شيء دون ألسنتهم، وقف أمامهم عسكري برتبة كبيرة، متين حليق الذقن والشارب، في فمه سيجارة مطفأة، قال بلغة حماسية منتصرة:"نحن نموت لأن الموت في هذه الحرب نصر للأموات قبل الأحياء". ثم استدار دورة كاملة، وأكمل بعد أن رعف رعافاً قصيراً:"هؤلاء الأبطال". وأشار بيده نحو جثث الجنود الذين قتلتهم أسلحة الخصم، كانوا قُرابة العشرين، مغطين ببزاتهم وبدلهم العسكرية، متروكة أقنعتهم كما لبسوها أول مرة، والتي كانت تخفيهم عن الآخرين كي لا يُعرفوا:"ليحمل كل فرد منكم رفيقاً منهم، وليودعه في نعشٍ يليق بمقام الذي أهدى عمره لأرضه"..

(ينظر نظرة عميقة بالحزن)

: انضمّ مع من تقدّموا لذلك، حمل أحد الموتى جاهلاً من هو، سوى عينيه الخضراوين اللتين تطلان من بين جفنين محترقين، انزلقت دمعة من عينه متوقّفة على قناعه، أنزله في تابوت من الخشب الغليظ، وأحكم إغلاقه بعد أن ساوى يدَي الجثّة جيداً، ليجيء من بعدهم جنود آخرون، وينقلون التوابيت إلى عربة كبيرة، قُسّم حوضها إلى ثلاثة أدوار لتأخذ أكبر عدد من النعوش..

(يمسحُ دمعته بظهر يسراه)

: تذكرت جارتنا يوم خرجت مُطلقةً في الحي رداءة صوتها، وضاربة جيدها، وممزّقة بأصابعها الراجفة جيبها، ولاطمة بباطن كفّها الجافة خدها، وماسحة ركبتيها بعد فركت بحرقةٍ كفّيها..

(يشد قبضته ويهوي بها على يد كرسيه)

: كان قد ترك خلفه رفاقه من الجند، رغم كل محاولاته الفاشلة لإنقاذهم بأيّ وسيلة حتى لو كانت خارقة لقانون الأمن والجيش، كُلّف بدفنهم، فبدأ في حمل جثثهم وخلطها مع أشلائها في نعش من الخشب الرطب، وخيوط دمعه متعرّجة على خدّيه، انتبه لآخر جُثّة حملها لزميله الأخير، مكتشفاً أنّه ما زال حيّاً وكأنّه في نزعه الذي أبطأ في دفعه لفم الموت، وحين حمله كما يُحمل الطفل، نظر في عينيه نظرة الشاكر، ليفارق الحياة فوراً، جروا نعوشهم حتى صفوها صفاً عسكرياً، ثم قرأوا عليهم الصلوات والدعاء، ورفعوا لأجلهم النشيد الوطني الذي رافقهم من الصغر حين كانوا في صفوفهم الدراسية الأولى، ثم رُفعت النعوش على عربات ذات أحواض خشبيّة دون غطاء وحواجز، سوى أعمدة قصيرة متباعدة على هيئة سياج مُقفلة الحوض بالكامل..

(يزفُرُ بأسى)

: كان عسكرياً مثالياً في أعين العسكريين الكبار، وهو يستدير مُلقياً نظراته الأخيرة على نعوش رفاقه آخذاً مكانه جيداً، رامياً بصره نحوهم بشكل ثابت، تأمّل النعوش، كمن يودّع أبويه أو إخوة ميتين، مُتجهين بها إلى المدافن البعيدة، حيث اللارجعة، مصحوبة بنظرات دامعة وأخرى متأملة، فلفّ المكان غبار قاتم تتخلّله خيوط دخان المدفعيّة وهي تدكّ مواقع للحرب..

(يُغيّر جلسته)

:كلنا في هذا الظرف عُراةٌ آفلين عابرين مُبعدين، والقتلة ما هم إلا رُقاة سارقين أنهر الأنفس المعجونة بالتعب..

(يبكي وبالكاد يُغالب بكاءه ليهدأ)

: أذكر صورة قاسية تجول في ذاكرتي: رجلٌ برداء ممزق ممتلئ بالدم، بجانبه امرأة شُطِر جسدها نصفين، وطفلٌ لم يبقَ من جسمه سوى يده الممسكة بلعبته المهشّمة، أصوات مدافع حين نُبش الدمار من رقدته الأبدية، هي كذلك حياتنا حاسرة عن رأس القلق، وأيضاً مبسوطة على رمل الأرق..

(يرفعُ رأسه للسقف)

: أذكر أسيراً داخل القفص الحديديّ لسيارة الجند، تنهشه الكلاب الخاصة بالحراسات الليليَّة، ليتنهي إلى خصلات شعر متشابكة مع كسور العظام، حتى غدت لا تُعرف ألإنسان أم لحيوان، وفي الصباح

تتقاذفها يد الهواء، وهناك فتىً معارض يطارده الجند أطلق ساقيه اللريح، فاقتفته كلاب الجند ومزّقته كل ممزّق، اقتربت من جثته: مُسبل العينين أصفر الوجه، خالٍ من أي تعابير للتظاهر أو المعارضة، اعترتني رجفة لم أعرف سببها..

(تندفعُ شقهة مباغتة . يُدرك فمه وأنفه بمنديل)

: كانت صورة لصاحبه القديم، المُفتَّت الرأس، تلاحق ذاكرته، وهول يحبس الحرب أنفاسه، أوقف العربة العسكرية جانباً، وترجّل بعد أن خلع بدلته العسكرية وقذفها داخلاً، عابسة ملامحه ليبكي بكاءً هستيرياً، حتى ا تقرب النهار..

(يبكي)

: كان الخوف يمثل في نظرته باستمرار، ليعود يحمل في قلبه سعير الحرب متغلغلاً في كثافة الدمار، تجذب بصره أشلاء آدمية مُتدليّة من أعلى السور المحاط بأسلاك شائكة، أسفل منه حطام لآلية عسكرية..

(يشرب كأس الماء ثم يوكؤه)

: هكذا هم رجال الحروب، غُلاةٌ يعرجون! بل كسحرةٌ يتقيَّؤون! ومن دونهم شهودٌ مثخنونَ بالبَكَم! وما برحت الحرب تفتحُ ظلمتها عن رقاةٍ يتوّغَّلونَ في أرواحٍ طريّةٍ بالحُسنى، وكلنا في هذا الظرف عُراةٌ مُبعدون، والقتلة يسرقون الأنفس المثقوبة بالألم..

(يسعل طويلاً)

: وهذه كل قصته، وصار بعدها مُحارباً في الحانة بعد ساحة الحرب، سَأَلَتهُ سيدتي حينها:"هل تريد النوم؟". وأجابها:"يبدأ نومي مع شروق الشمس". أخبرته بلطف:"حان وقت الإغلاق إذا سمحت". وبالكاد استجاب لطلبها، كانت رائحة الخمر تزفر من مسام جلده، وثيابه ممزقة من أعلى بعد شجار مع زبون طردته سيدتي من الحانة، واعتذرت لما حصل، حاول نزع ملابسه فقالت له جُمَلاً لطيفة بالإنكليزية، فعاد ليرتديها وأخبرها أنه كان لا يقصد، وأشار بأنه سيحضر في الليلة القادمة ليشرب ويلعب الورق **(يضحك)** ثم فتح فمه وتثاءب طويلاً، وأغلقه سريعاً، لم تُكثر سيدتي الكلام معه، وهو بدوره لم يقل شيئاً، استمر يتثاءب حتى غادر الحانة بعد الإغلاق بعشر دقائق، بعد أن دفع ضعف الحساب..

(صَمْت . تتغير ملامحه إلى العبوس)

: دخل لحظتها الرجل الموسمي، دائخاً مرتعش الجسد، أَعَدَّت له طاولة وَجَلَسَت قبالته، كان قد مشط شعره إلى الخلف، بدت سيدتي طيبة وغليظة معه في ذات الوقت، ثم راحت تشتمه وهو يضحك، قبل تلك الليلة رأيتها توبخه وتلومه وهو يجفف جرحاً صغيراً في ذراعه ويعقمه بمنديل مُطهر، ولعاب سيدتي يتطاير وهي تصرخ في وجهه:"إلى متى؟ إلى متى؟"..

(تمدُّ له امرأة تعرفه يدها فَيُقَبِّلُها)

: أمضت ليلتها تلك تشرب الزجاجة تلو أختها، كانت تفعل ذلك كلما تشاجرت معه، لدرجة أن أحد الزبائن سَخِرَ منهما قائلاً:"كأنهما قِطَّان". تشبيهٌ كالصفعة..

(يدقُّ على مسند الكرسي)

: بعد ليالٍ رأيته معها، وكانا مُتراضيين، ومثل كل مرة، ظهرت نيته الخبيثة على ملامحه، وبين كل دقيقة وأخرى يمشط شعره الذي أكثر دهنه قبل مجيئه، بدت هي لطيفة الطبع، والكلام يسعفها كثيراً فهو لم ينطق مُذ جلسا، بل لم يَمُدَّ يده إلى كأس أو زجاجة عدا علبة الكبريت الزرقاء التي أبطأ يلعب بها وسيدتي تُكلمه، وهو يشعل سجائره ويكمل لَعِبَهُ بالكبريت، وهي مستمرة تُكلمه..

(يُومئ بكفَّيه)

: أمثاله يتوالدون في بقاع كثيرة من الأرض..

(يتباطأ القطار شيئاً فشيئاً، يُفتح بابه الآلي فيصعدن أربع فتيات يتسابقن ويتبادلن إشاراتٍ بذيئة، يندفعن بعلب المياه الغازية، يقفن مُمسكاتٍ بالعمود الفولاذي الفضي البارز بين المقاعد الخلفية المتقابلة، يتحرك القطار فيتمايلن واقفات وهن يتمادين في إشاراتهن ومزاحهن الصاخب)

: ما قالته سهير عن صديقاتها، أنه ليس في حياتهن ما هو صارخ وصادم، تسكن وصديقاتها في شقة صغيرة من غرفتين ودورة مياه واحدة، تقع في بناية عتيقة على شارع فرعي، فور الدخول من بابها الخارجي يصادفك مَمَرّ مبسوط بالرخام، على آخره مجسّم المسيح المنحوت من الخشب المدهون بالأزرق، تفتحُ غُرفتان، إحداها غرفة الزائرين، التي على يمين الداخل، الغرفة مفروشة وعلى نوافذها ستائر ذات شكل فاخر، عُلّق على حائطها صورة لقدّيس حاجباه عريضان، كثيف الشَّعر، وملامحه جميلة، بجلبابه الأسود طويل الأطراف والأكمم، يتدلّى من عنقه صليبٌ خشبيٌّ، معلّقٌ بحبلٍ خشنٍ طويل، والغرفة الثانية للنوم، كل يوم فيها تلتقطُ بنطال الجينز الملقى على طرف الكرسي الهزّاز، وتحشرُ فيه كِفلها النَّدي ثم ترسم أناقتها على مرآة مستطيلة ذات إطار بلاستيكي، في غرفة طُليت جدرانها بطلاء شديد الحُمرة، أعلى مرآتها لوحة تُطلّ منها امرأة تجلس في مقهىً عتيق، تجمع يديها حول كوبٍ أصفرَ عريض..

(يعتصر أصابع يده اليسرى بأصابع يده اليمنى)

: يقابلها رأس غزال مُحنط، وضِع على طاولة سوداء قصيرة ذات أرجل مزخرفةٍ جليلة، أوقفت على جلد نمرٍ مدبوغ، تتركُ مرآتها لتجلس على زاوية سريرها المغطى بملاءة زرقاء، مُزيّنٍ بنقوش بيضاء

فاقعة، لتنظر في مرآة صغيرة، حتى يجهزن صديقاتها ويذهبن في نزهتهن الليلية..

(ينزع من الكتاب ورقة ويحشرها ممزقة في جيبه)

: منذ أن عرفن حانة السيدة آسِيَة هي وصديقاتها يدّخرن المال الكافي للشرب والأُنس، وتدبير أمورهن الأخرى تدبيراً جيداً، لسن يائسات، يسعين كثيراً لتغيير مصيرهن إلى جهة أفضل وأكثر مرحاً، وكانت الحانة هي المساحة التي عثرن فيها على ذواتهن، ليدلفنها ببناطيلهن الضيقة وكِنْزَاتهن البرّاقة، وعلى وجوهن تلمع نشوة الليل النقي..

(يمر بعينيه على ما كَتَبَهُ صاحبه)

: ووجوه الزبائن تتعقبهن بأعين زائغة، ولا يعرن اهتماماً، يشربن من كؤوسهن رشفة تلو أختها (**يبتَسم**) قد شاهدنني مرّة وأنا أضع الزجاجة على طاولة جاد الله بعنف (**يضحك**) وأُمرّر يدي على صدري وأُحدّق في كل جهة، حينها خبط الكأس على الطاولة وخرج غاضباً، استرضته سيدتي وأجلسته إلى طاولة لا أُشرفُ عليها، كان ينظر إليّ وكأنه يقول:"إياك أن تُدبِّرَ لي أمراً". هو هكذا مذ عَرَفَتهُ الحانة وطاولاتها وأشباهه كُثُر، اثنا عشر ساعة يقضيها في النوم، واثنا عشر ساعة يقضيها في السُّكْرِ والغَضَب، ومع هذا فهو غامض التفاصيل وكتومٌ جداً فكل مواقفي السيئة معه لم يخبر بها أحد أو

حتى يُذَكِّرني بها حين يحدث بيننا نزاع جديد، بعدها صار لا يُحدِّث إلا سيدتي، وكأنه يَتَهَيَّبُ الاختلاط بالسُّقاة والسَّاقيات، كثيرة إشارات الألم في وجهه، الإشارات ذاتها التي جعلت من وجهه أيقونة بين الزبائن..

(يلمس ألم لثَّته المفاجئ، يضغط على فكّه حتى يهدأ)

: لقد أتته حالة غريبة ذات ليل، فقد دخل بلباس عسكري، ثم خرج، وعاد بلباس رياضي، ثم خرج وعاد بلباس منزلي وهي بيجامة صفراء، ثم خرج وعاد ببدلة خضراء ذات أزرار فضية نحاسية..

(يشطب سطراً . يشير لصاحبه بمتابعة الكتابة)

: هو يَسبح في بحر السبعين لكنه لم يُلامس الثمانين بعد، فالثمانين دون شك ستكون جحيماً عليه لو عاش حتى يصلها وهو على هذه الحال، هذا إذا لم تكن نورا تلاحقه وقتها، استغلته كثيراً مذ تخلّى عنه أبناؤه في الشتاء قبل الماضي، رأيتها ذات ليل تقف بعد باب الحانة بخطوات، وقد غيّرت تصفيفة شعرها حيث عملته على شكل كعكة، بعد أن كان بالأمس يتدلّى إلى نصف ظهرها، ومسحة شفاه حمراء لامعة، وعيناها مُظلّلتان بالرمادي، وبظلّ العيون رسمت خطّين مقوّسين، مرتدية رداءً أسودَ ضيّقاً يكشف شيئاً من تضاريس جسدها، تبحث عنه في وجوه الجالسين على طاولات السُّكْر، وحين وقعت عيناه عليها، ركض نحوها وسحبها إلى طاولته وأجلسها وهو يُغني

ويفرقع أصابعه، ليمسح شعرها المسدل إلى دون مؤخرتها، فجأة نهض الشاب الأسمر، بعد أن رآها، هو ذاته الذي زار الحانة قبل ليال، وسار إلى طاولة جاد الله، فصاح فيها:"نورا، ماذا تفعلين هنا؟". فدفعه جاد الله بعنف وأوقعه أرضاً، ليتدفق الخوف في دمه، والزبائن يتفرجون ليعرفوا النهاية، أما نورا فظلت تنظر إليه كأن لا شأنَ لها بما جرى، تنظر وتلعب بكأسها الفارغة..

(يتأمل في النافذة)

: حاولت أن أعرف ماذا يدور في رؤوس الثلاثة: جاد الله ونورا وذاك الشاب الأسمر المطروح، ولم أصل إلا إلى مشهدٍ صامت، نهض الشاب، وعاد إلى طاولة رفاقه وأكمل معهم لعب الورق، بينما أخرجت نورا مرآة دائرية صغيرة، وقلم شفاه أحمر، وشرعت تضع زينتها لخمس دقائق، ثم رفعت إلى فمها كأس الخمر الطويل..

(تعبر ذات المرأة وينزع عنها قبعتها . تأخذها منه ضاحكة)

: يغالب جاد الله بكاءه كطفل، لم أحتمل بكاءه ولم أُطق أن أرى دموع رجل في هذا العمر المتهدل، لقد دفعت به ظروفه إلى سلوك لا يُحمد، هو لا يريد أن يُغير ممَّا هو عليه، أذكر نورا قد جاءت في وقت مُبكر إلى الحانة وتحديداً لحظة بدأنا العمل، كانت السيدة آسِيَة قد تركته نائماً النهار كله في الحانة رأفة به..

(يَتَطَلَّعُ إلى امرأة أخرى وهي تساوي ربطة شعرها)

: حالات نادرة تجيء بنورا مُبكراً، فأسرعت إلى طاولته، وكان قد استيقظ من نصف ساعة، انحنت عليه وأمسكته من رأسه، واشتمّته طويلاً، فتساقط رُطَبُ قُبلاتها على خدّه وجبينه ثم قبضت على ذقنه وراحت تهز رأسها، وتُغني وتضحك ثم جلست قُبالته، وهو منسجمٌ معها، والكأس التي في يده تتدفق على الأرض وأطراف طاولته، ولا أحد من السُّقاة أو السَّاقيات أو حتى الزبائن يعرف كيف يتعامل معه، وينقذه من مرارة الحال، ومرارة الكهولة، حاول أحدهم ولكنه تلقى ضربة واحدة، فقط واحدة، رمته أرضاً، جاءت سريعة وقوية، لم نرَ غير جاد الله وقد نهض من طاولته وهوى عليه بالضربات ودم الرجل يسيل على الأرض، بل لم يعد يعرف من أين يتصدى للضربات، خلصناه، خلصاه وأسعفناه..

(يتناول ما بقي في كأسه بلا رغبة)

: عندها أمسك جاد الله بيد نورا وأخذها معه خارج الحانة، كانت مُتأنِّقة وفي كامل أنوثتها، وفَرِحَةً أيضاً..

(يَمدُّ له صاحبه سيجارة . يتناولها)

: عادت معه في الليلة التالية، لكن في زيٍّ جديد، قميص حريري شفاف طويل، تمشي في زهو وغرور، ساقاها بيضاوان عاريان، وعطرها ينبعث إلى مدىً بعيد، رأيتها معه أول مرة فاتنة، وفي المرة الثانية ازدادت فتنة، صدرها ممتلئ ونهداها يتحركان بخمول، بينما

جاد الله يرشف من كأسه ويبتسم لها، وهي تثرثر على رأسه بأكاذيب لا يجيدها غير الحسناوات..

(يطفح صوته بالحزن)

: تمنيت لو أني حُقنتُ بجرعة كافية من اللامبالاة، ما أحسه في نفسي هو احتراق يشبه الحطب حين تأكله النار، في أمري هذا علي أخذ الاحتياطات حتى لا أهوي في سوء فهم الآخرين، ففي ليلة غير بعيدة، والفجر ما زال بعيداً عن الوصول، كانت أعين الزبائن تكاد تأكلني، أعينٌ كثيرة، فمن عند كل طاولة يُطل وجهان أو ثلاثة، بنظرات لا تحيد عني، وأفواه تقهقه بصخب وأخرى تضحك إلى أخرى بجانبها، والوجوه التي اعتدت رؤيتها في هذه الحانة نادراً ما تتبدَّل، هي ذاتها التي تحضر وتَسْكَرُ كل ليل، رأيت جاد الله ممداً عن باب القبو ككلب نائم، وزجاجة نصفها مندلق إلى قدمه، ونصفها الآخر قد أفرغه من ساعات، وقبعته البيضاء تحت إبطه الأيسر..

(يَصمت. يُكملُ بتراخٍ)

: بدى لي أنه فَرِحٌ وقتها، وهو نائم، فمه مبتسم رغم سُكْره، قالت لي إحداهن أنه يستعد ليلتحق بالطائرة حيث قطعت نورا تذكرة لها وأخرى له، إلى مدينة لا يعرفها بل لم يزرها في حياته، وحين جاءت لتأخذه صحا من سُكْره يراقب المكان والجالسين، يختلس النظر بعينيه المتعبتين سريعاً، وَمَرَّرَ يده على شعر رأسه الدهني الأشعث، ثم

ألقى وجهه نحو السيدة آسِيَة وهي خلف آلة النقود، تتحدث مع صديقة قديمة، فسحب يده من نورا واقترب من القبو، وركل بابه واختفى هابطاً فيه إلى الغد، فأمطرته لحظتها بوابل من الشتائم وهو طريح في القبو، ثم غادرت..

(يراقبُ شيخاً يضع ورقة في جيبه، ويُخرجُ أخرى)

: بعد ليال قليلة، وكنّا قد أخرجناه من القبو، بعد أن هاجمتنا رائحته التي أعجز عن وصف نتانتها، فقد مكث يوماً ونصف يومٍ في القبو، واختلطت رائحة السُّكْر بوساخة جلده، وتسببت في تخدير الأنوف، بل كادت تؤذي دماءنا..

(يسعل . يُكمل بصوتٍ مُتأسِّف)

: فجاءت نورا، وعَبَثَت به ككل مرّة، كأن رائحتها تسكنُ فؤاده، ركض إليها وألهبت دمه، يُضاحكها، ويُحدثها كأنها أدخلته إلى علاقةٍ تتجدّد أتوماتيكياً، فبعد أن تخلص من نتانة جلده واستحم، جاء لابساً بدلته البيضاء محاولاً معها الاختفاء بين ضجيج زبائن ليلة جديدة، قريباً، من ركن الحانة، الخاضع لطور الإصلاح، ومع ذلك لم يتمكنا من الاختفاء فقامته الطويلة خذلته هذه المرة، رأيته وهو يعتذر لها، ولسانه بالكاد يسعفه على بسط الكلام والتأسف والرجاء، أوصلتُ زجاجةً لزبون قريب من طاولتهما، ثم تظاهرت بأني أبحث عن شيء ضائع مني، سمعتها تكلمه ساخرة:"عاجز عن الطيران

كعجزك عن كل شيء، وها قد أضعت الرحلة علينا". لم يرد، وأكملتُ تظاهري بالبحث مُتَخَفِّياً خلف طاولات الخدمة والعربات الصغيرة لنقل الكؤوس..

(يُقَهْقِه)

: ما أحمقني، فقد خشيت أن يفطن لي بين اللحظة وأختها، ورحت أتساءل ما الذي يدور بينهما، وماذا تفعل في عقله المرتهن للكهولة، وما الذي تنويه، هذه الأربعينية المائعة اللعوب، كنت أسمع حديثهما ولا أسمعه، رأيت أنامل يمناه تُداعب خدها وسط هرج الحانة والموسيقا الصاخبة، وضجيج البشر، شعرت برقّتها حين ملأت كأسها حتّى النصف، ثم أفرغته وأطلقت ضحكة عالية أسكتتها بظهر يمناها، لتخفي رأسها ضاحكة، فجأة، نهض بصحبتها ليقفا عند باب القبو مزهواً ببدلته البيضاء، وتحت إبطه قبعته التي لا تفارقه، تَحَدَّثَا قليلاً، ثم خَرَجَا..

(ينظر إلى مقعد خالٍ)

: أحمل وقائع الحانة في دمي، وأحمل في بصري ألوانها، وفي نبضي صخبها وهدوءها، فهي بما فيها ذاهبة وآيبة في عروقي، لأنها تأخذ من يومي الحصة الأكبر، والانشغال الأسمن، وأرى في كل ذلك طرافة، فقد اختلطت بي مأساة لا أفهمها، فمستقبلي بات مُتجذِّراً فيها، فلن أجد عملاً في غيرها، حكايات كل يوم، ولا أحتاج إلى

متابعة الأخبار، فهي تصلني من أصوات السُّكَارى، وهم يلعنون الحكومات، ويتندرون بالأنظمة، ويحتجُّون على الأسعار، ويتشاءمون من القادم في ظل بقاء نفس الحكومات، ورغم ازدحام رأسي بالأفكار والتوقعات السلبية والسيئة، إلا أن في نفسي نافذة صغيرة مُشرعة على الأمل..

(يُخرجُ منديلاً مُعطَّراً ويمسحُ به يديه)

: لم يطرأ علي استبدال فترة العمل بالنهار، لأن الحانة فارغة وقت النهار خصوصاً وقت الظهيرة، ولا يَسْكَر فيها أكثر من عشرة أو أقل، فزبائن النهار قليلون، ولا أفكر في تحول عملي إلى النهار، خصوصاً حين يأتي الرجل الموسمي وهو يمضغ اللبانة، فهذا الرجل لا أحبه، يُشغلني كتصرفات وتحركات لكني لا أحبه، ليس دائماً لكنه قد جاء مرات قليلة، ومن سوء حظي كنت قد جئت بطلب من السيدة آسِيَة، إحداها كانت بداية انتقال الحانة إلى مكانها الجديد، وكان الوقت عصراً، وفور مجيئه أدرت له ظهري متظاهراً بنقل الأغراض الخاصة بمطبخ الحانة، جلس وشارك سيدتي طعامها: قطع مستطيلة من اللحم البقري، وشرائح خبز دائرية، وصحن سلطة صغير، دَخَلَت حينها زليخا وألقت على سيدتي وَعَليّ تحيتها ثم جلست قريباً مني..

(يسير ببصره خلف فتاة تتجه نحو الخلاء)

: جاء جاد الله في إحدى تلك المرات النهارية، مرّ وبصحبته نورا تهز ردفها وتفرقع أصابعها طرباً، صببت لهما كأسين، فحرَّك جاد الله ذراعه بعجالة واهتزّت الطاولة بشدة، فسقطت كأس نورا، واندلق الخمر على لباسها، فنهضت صارخة، وتراجعت إلى الوراء كحمامة أحست بالخطر، رفعت لباسها فشعَّ ساقاها المضيئان، لم أتورَّع عن مدِّ بصري إليهما طويلاً لأشرب جمالها، فنَهَرَني جاد الله:"اذهب اذهب". فكرت في نفسي، واكتشفت أني أُحَمِّل نفسي ظنوناً لا حقيقة لها، ولست سيئاً كهذا السبعيني المتصابي..

(يسمح جبينه . بِرِقَّة يُكمل)

: قبل انصرافي وزليخا كنَّا قد شربنا معاً جُرُعات متسارعة من كأسين صغيرين، وقد وضعت سيدتي أمامنا زجاجتين وهي تقول:"ليأخذ كل منكما واحدة مكافأة على تعبكما هذا النهار". لا تدفع لنا مالاً بدلاً من الخمر إلا في حالة واحدة، حين لا يتوفر في خزانتها وتحديداً رف الأجور نقداً يكفي لتقديم مكافآت، فتكون الزجاجة هي المكافأة الأسرع والأكثر إغراء وإرضاءً لأغلب السُّقاة والسَّاقيات في حانتها..

(يسعل طويلاً)

: حين أخذتُ زجاجتي شكرتها، وعادت إليّ نشوة الأمل، وشعرت بالهدوء الذاتي، وفور خروجي عائداً إلى غرفتي، سمعت صوتاً وكلاماً

بذيئاً في الجوار، فإذا به الرجل الموسمي يتندر بفتاة مع صديقاتها وجميعهن في التاسعة عشرة أو الثامنة عشرة من العمر، كن يلتفتن حول بعضهن خوفاً من أعوانه، فتضاعفت في نفسي مشاعر كُرهه أكثر، كاد يكون سبباً بترك زليخا العمل في الحانة..

(يجزع)

: زليخا تتسم بصفاء كبير، صفاء النفس قبل صفاء العينين، كان هذا اللئيم قد أقنع سيدتي بطردها من العمل بعد أن ضرب زبونٌ رُكن الطاولة احتجاجاً على سعر الزجاجة، واستمر يصرخ عليها وكأنها السبب، وفجأة ارتفع ضغط دمه، حيث أنه يعاني من ارتفاع شديد في ضغط الدم، ونحن لا عِلْمَ لنا به، فسقط الكأس من يده وسال الدم من فمه، وبدأ يرتعد، وهو مستمر يضرب ركن الطاولة حتى تباطأت ضرباته، تراجعت زليخا، وكادت تهرب فقمت بإمساك يدها ليزول خوفها، ولولا تدخل المسعفين من زبائن الحانة لفارق الرجل الحياة..

(ينتبه لفتاة تعانق جدتها وتبكي)

: استجابت السيدة آسِيَة لرأي الرجل الموسمي في البداية، وطَلَبَت من زليخا ترك الحانة بعد أن أعطتها ظرفاً منتفخاً بالمال، كنهاية لخدمتها، وزجاجة من الخمر، ثم تراجعت سريعاً..

(يُطلق أَنَّةً طويلة ويتذكَّر)

: رأيتُ زليخا أول مرة جئت للحانة، في المقابل غشاوة من الماء المتبخّر تُغطيّ زجاج الشبّاك، وشفتا زليخا تنفخ في كوب الشاي الأحمر، وتتأمّل نفسها في مرآة مُثلّثة قُرب الشبّاك، تنورتها قصيرة سوداء، مُطرّزة بخيوط صفراء، بعد رشفتين صغيرتين، وَضَعَت الكوب جانباً وَمَضَت بأناملها الناحلة اليمنى ترسم على الزجاج أشكالاً: قلوبٌ مقلوبة، ورودٌ دون أغصان، وأخرى بأغصان، خطوطٌ مُتقاطعة، وأخرى مُتقابلة..

(يتَنَهَّد)

: وقفتُ سارحاً في ظهرها العاري إلا من بلوزة صفراء مفصولة نصف الظهر، ومشدوداً إلى نمش كتفيها المتناثر حتى عضديها..

(يجمَعُ كَفَيَّه ويحني رأسه)

: كان صوت صفيرها يعلو والأشكال الخارجة من أناملها تتزايد على الزجاج، وأمام آلة البيانو الكبيرة، التي زُيّن ظهرها بمزهريات صغيرة وورودٍ على حوافّها، أصابعها الطويلة النديّة، تُرقّص أناملها ذات الأظافر الحادّة فوق خطوط البيانو برشاقة وخفّة، وصوتها يُصدر نغماً ناعماً..

(يُحرِّكُ يده بعجالة)

: بعد أسابيع جلستُ جوارها لتشارك أصابعي السمراء الكبيرة أصابعها الشهيّة العزف، وعينانا تقرآن نوتة الموسيقا المُعلّقة أمامنا، طاويان

مقطوعة بعد أخرى، قلّبتُ صفحات النوتة بحثاً عن مقطوعة أكثر انسجاماً وهدوءاً، و...

(ينظرُ إلى ساعته)

: عقاربها تشير إلى اقتراب الحادية عشرة والنصف، وصمت الركاب غريب لدرجة أن لا أحد يتحدث مع أحد، فلم يبق إلا أن نستمع إلى صوت المحركات..

(يُفتحُ باب الخلاء سريعاً وتخرج عجوز تتوكأ على عصاً معدنية ذات ثقوب صغيرة، وسعالها المُتقطِّع مُستمر حتى جلست قريباً منهما وشرعت تقرأ من كتابٍ شبه ممزق)

: تَوَقَّف القطار فجأة عند مجموعة مبانٍ يحيط بها الليل من كل الجهات، لولا أضواء النوافذ التي اخترقت الظلام، ارتفع احتجاج الركاب على إضاعة الوقت بالتوقف المفاجئ، فأخبرهم السائق بصوته المُتعب أنه اضطر للتوقف للاطمئنان على سلامة المحركات، وأردف مُساعدهُ بأنهم لن يجدوا محطة عدا هذه للتوقف، وأشار بأن الصيانة لا تعمل في هذا الوقت، خصوصاً عند اقتراب الثانية عشرة ليلاً..

(يُعرض عن رجل يُحدّجه بنظرة ثاقبة)

: وأثناء قيامهم بالكشف على سلامة المحركات والعجلات، فُتح باب الركاب ودخل رجلان وخلفهما ضوء منبعث من آخرين يتبعونهما، ولوَّحا للجميع بالصمت، فراح جاد الله يصرخ في الصمت

التام للركاب، عندها رَحَّبا بهِ بسخرية:"الوزير جاد الله، ما كان عليك أن تكون في هذه الرحلة"..

(يتفرَّسُ في وجه الرجل . يُعرض)

: اجلسوه على ركبتيه على الأرض، ويداه خلف رقبته، فتشوا جيوبه، وأخذ أيمنهم هُويته، وأعطاها للواقف خلفه، تبادلوا معه بعض الكلام، فضربه أيسرهم بعقب مسدسه وشج جبينه، ثم بدأ جاد الله بالصراخ، ليذيع صراخه في القطار كله، ويرتجف بعض بالركاب، فأمرا الرجلين الآخرين وأخذاه وخرجوا جميعاً دون إغلاق الباب، وكأنَّ أشباحاً جاءت واختطفته وغادرت سريعاً..

(يُشعلُ سيجارة لصاحبه)

: صعد السائق ومُساعده وأخبرا الركاب بصوت واحد عبر المكبر:"هناك عاصفة في طريقها إلينا". سَخِرَ منهما أحد الركاب:"من أسبوعين ونحن نسمع عنها في الأخبار والنشرات ولم نرها حتى الآن، هل عَدَلَت عن رأيها"..

(يضحك)

: قال المُساعد بحنق:"لا نريد لغطاً، آمل منكم أن تُسدلوا ستائر النوافذ، فالطريق قريبة من نهايتها". أبطأ الركاب ينظرون إلى قامة السائق العريضة، ووجه غير الحليق، وعينيه الواسعتين، وسيجارته المائلة عن طرف فمه، وهو يحكُّ شعر رأسه مُجعّد من الخلف، وقد

غزا الصَلَعُ مقدمته، ولحيته شقراء خفيفة نصفها شيب مُشعّ، راح يتحدث طويلاً مع مُساعده فقفزت من صوتيهما جُملة عاجلة:"الرجال الأربعة"..

(يهمُّ بشرب كأس جديدة)

: ومن نافذتي لم أرَ غير الرجال الأربعة وهم يتربصون بجاد الله هارباً، ليطارده كلب ضخم ويطلقوا عليه النار، ثم يهرولوا نحوه، عشر دقائق حتى توقف القطار عند المحطة الغربية، مُنهياً رحلته هذه، ومرة أخرى تدلَّت الشاشة المستطيلة الناطقة من سقف القطار، بعد أن انقسمت إلى ثلاث صُوَرٍ حيَّة: خريطة . طريق . جانب المحطة الغربية، فارتفع منها نفس الصوت الأُنثويّ النقيّ مُرحباً بالمسافرين، أنهت كلامها، وفتح الباب الآلي، وعبرت بين مقاعد الركاب ذات الفتاة، مرتدية تنورة خضراء قصيرة، وقميصاً أبيضَ مُطرّزاً بالأخضر الفاتح، وحذاءً بكعب قصير، على وجهها مكياج خفيف، وشعرها مربوط على هيئة ذيل الفرس، وهي تحمد للركاب سلامة الوصول..

(يُغطي عينيه براحته اليمنى لوقت . يُكمل)

: أشاحت سُهير بعينيها في صمت، وأعطتني القداحة، وأخذت حقيبتها الحمراء المكعبة التي كانت في حضنها من أول الرحلة، وأومأت لي بيدها اليمنى في الهواء برسمة لا تخلو من الفُحش لكني لم أفهمها، رقّت لي كل جوارحها، أوجدت نظراتها في نفسي خلاصة

ما في العمر، غازلتها بنظرات المفتون، فمَسَحت شعرها مُتبسمة بعفويّة، ثم خبّأت وجهها عني ذاهبة بسرعة نحو باب القطار وابتسامتها السخيّة لم تغادرها، ومن خلفها يهرولن صديقاتها اللعوبات، كأنّها تنادي قلبي بصوتها الرقيق، تاركة صورتها مُعلقة على جدار قلبي..

(يتأثر أثناء حديثه)

: نهض الركاب حاملين حقائبهم الصغيرة والكبيرة، وغادروا إلا أنا، فقد أبطأت أبحث عن حقيبتي الخشبية الصغيرة، حتى عثرت عليها مقلوبة بسبب عبث الركاب، فهي لا تضم إلا أغراضاً بسيطة: هاتفي . دفتر صغير لتدوين النصوص الأدبية القصيرة . صورة والديّ . قارورة عطر متوسطة الحجم . قطع حلوى صغيرة مُغلفة . مناديل تعقيم . جيبٌ خارجي بلاستيكي مُستطيل لشفرات حلاقة ومعجون أسنان وفرشاة. استنكر مُساعد السائق بقائي في القطار، ثم أشار إلي: هيه أنت، انتهت الرحلة..

(يراقب امرأة يلامس شعرها ردفها، وقد خضبته بالحناء)

: نهضتُ مُغادراً، لأرى سُهير واقفة مع صديقاتها نهاية الرصيف المقابل، وحين رأتني هابطاً من القطار، رفعت يدها وَلَوَّحت، وأرسلت من شفتها قُبلةً هوائية، ثم سَلَكنَ شارعاً فرعياً، لم يكن مُبلطاً لكن جوانبه مُزينة بالشجر، وهي تبتعد بينهن، رأيت ضوءاً يلمع على

ضفائرها، شققن طريقهن بين فتيان يتناثرون على الرصيف، يرتدون الملابس القصيرة، وتلعب أيديهم بالأدوات الخفيفة، وعلى صدورهم مُلصقات سياسية صغيرة، وأعينهم مليئة بالأسئلة، رأيتهم ينظرون بنهمٍ إليهنّ، وهنَّ يبتعد شيئاً فشيئاً..

(يلتفت إلى صاحبه)

: هذا كل ما أتذكره..

(يهزّ صاحبه رأسه بالعلم . ينظران من زجاج النافذة)

: نجوم؟! نجومٌ في سماء بلادنا؟ **(يضحك)** هل بصري بخير، أُنظر أُنظر نجومٌ هنَّ فعلاً! تخيل قمر ونجوم تضيء سماءنا التي عبرتها مئات القذائف وخرقتها عشرات المدافع، ولوَّثتها عشرات الطائرات المقاتلة..

(يُكلّم النجوم)

:أجئتنّ تُضئن ليل الموت هذا؟ وتضئن ماذا بالله عليكنّ؟! هاه .. ليل موشومٌ بالدم القاني، والجروح المبؤوسة، والندوب الملتهبة، والنتوءات الواسعة، فعلام حضوركن تتأملن سخطنا وحالنا هذه؟ يسقط منكنّ ضوء أزرق لزج باهت ليس الضوء الذي عهدناه في الأيام الخوالي، أيام الرضى والصفاء والغبطة والهدأة والسلوى، قبل أن تحسدنا الحرب على ما كنا فيه، وقبل أن نُفارق فُرش الخليلات القتيلات، ونُبعَدُ عن بيوت أهلنا المفقودين..

(يصمت قليلاً . يُكمل)

: التهمتهم الحرب جميعاً، وفرّ الناجون منهم يوم استحالت منازلهم إلى أوكارٍ لأمراض وأوبئة ذهبت بأكثرها **(يسعل)** أشكرك على مرافقتي في هذه الرحلة، أنتظرك غداً مساءً في حانة السيدة آسِيَة، ولا تنسَ أن تحضرَ معك الأوراق..

(يخلط صاحبه الأوراق في حقيبته . يتوقف القطار . يغادران)

انتهت

ماجد سليمان
مدينة السّيح ـ شتاء ٢٠٢٢م

ماجد سليمان

رأسٌ بينَ مطرقتين

هذه المسرحية تنتمي إلى أدب المدينة الفاسدة، وتُعدُّ الرابعة في أعمال الكاتب المسرحية، والإصدار الـ ٢٠ في مسيرته الأدبية التي امتدّت لـ ٢٤ عاماً حتى الآن.

ماجد سليمان، أديب سعودي

تَنَوَّع أدبه بين الكتابة الشعريَّة والروائيَّة والمسرحيَّة والقصصيَّة.

الإيداع ١٠٧٧٣ / ١٤٤٣

ردمك ١ – ١٦٠٣ – ٤٤ – ٦٠٣ – ٩٧٨